تنبيه تحتوي هذه الصحيفة على آيات قرآنية وأحاديث نبوية، فالمرجو صيانتها عن أي امتهان

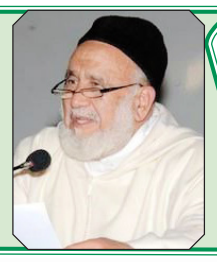

من معالم المنهج الاجتهادي عند العلامة محمد التاويل رحمه الله تعالى

ص: 6

ذ. أناس الكبيري

معالم في الطريق إلى فهم القرآن الكريم اليوم

ص: 8 – 9

أ. د. الشاهد البوشيخي

المدير المؤسس
المفضل فلواتي رحمه الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

3 دراهم

المحجة

نصف شهرية جامعة

AlmahajjaJournal | almahajjafes@gmail.com | www.almahajjafes.net

المدير المسؤول : د. عبد العلي حجيج | 01 محرم 1438هـ – 03 أكتوبر 2016م | العدد : 464

افتتاحية

ماذا تختار؟

الحياة كلها إمكانات واختيارات. والاختيارات ليست إلا اختبارات وابتلاءات. قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (الملك: 2).

وقيمة الإنسان حسب ما يفضله ويختاره، بل وقيمة الأمة حسب ما تختاره. ولا يتفاضل الأفراد الجماعات، ولا تتفاوت الأمم في سلم الخير والشر والفضيلة والرذيلة والنفع والضر إلا بحسب نوع الاختيار وقوة أثره في جلب الخير الأنفع والأدْوَم زمانا والأهدى سبيلا.

اختيارات الأمة ومآلاتها:

إن ما وصلت إليه حال أمتنا اليوم راجع إلى اختياراتها واختلال سلم أولوياتها، فكانت آثار ذلك سيئة التأثير على حياة الأمة كاملة:

فقد اختار بعض أبناء الأمة –طوعا أو كرها تحت ظروف تاريخية عصيبة– العصبية والتفرق على الوحدة والتوحد تحت راية الإسلام، فكثرت الرايات والولاءات وتضاعفت الآلام والويلات.

وفضل كثير من جهات الأمة العمل بالقوانين الدولية التي فرضها المستعمر، وتُخلي تدريجيا عن شريعة الإسلام في كثير من المجالات الحيوية في جسم الأمة.

واختارت غير لغتها وغير لسان وحيها فتحكمت فيها العولمة وتفككت هويتها وبعدت الشقة بينها وبين فهمها لدينها وتراثها فضعف الشعور والاعتزاز بالانتماء للذات.

وآثر البعض منا الدنيا على الآخرة في التعليم والإعلام والاقتصاد، فصارت التوجهات منكوصة، والقواعد والمعايير مقلوبة.

فماذا تختار أيها المسلم بعد هذا؟

■ هل تختار العيش في ظل طاعة الله تعالى والعمل بقوانين شرعه الحنيف فتنعم بالحياة المطمئنة: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد: 28)؟ أم تختار العيش في ظل الشهوات والغرائز وتعرض عن ذكر الله فلا تظفر إلا بالتيه والشقاء الأبدي: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (طه: 123 – 124)؟

■ وهل تختار الإيمان بتوجيهات الوحي (قرآنا وسنة) وتجعل ذلك أس الاختيارات وحاكمها ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (البقرة: 132)؟ وهل ترضى أن تختار بعد أن اختار الله لك ﴿وَمَا كَانَ لِمُومِنٍ وَلَا مُومِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن تَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ (الأحزاب: 36)؟ وهل ترضى أن تختار لواقعك ما يناقض دين الله ويشاقه ويعانده؟ ﴿وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الحشر:4) ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُومِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (النساء:155)؟

■ هل تختار ما اختاره الله رب العالمين ورضيه لخلقه أجمعين: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: 3) أم تختار ما يعاكس رضى الله ويرضي شهوات العباد والعبيد؟

■ وهل تختار ربك الله الواحد الأحد الفرد الصمد أم أربابا متفرقين ﴿أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (يوسف: 39).

■ وهل تختار من أهل القدوة والأسوة من اختارهم الله تعالى ورضيهم وأمر باتباعهم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام:90)، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيئَةِ﴾ (البينة:7).

في الحاجة العاجلة لتصحيح المسار وتجويد الاختيار:

■ يا أمة الإسلام أفرادا وجماعات وهيئات ودولا وشعوبا إن من واجب الوقت على الأمة أن تفقه اختياراتها، وعلى رأسها:

على مستوى الأفراد:

أولا: تصحيح الإيمان بالله جل وعلا وبالغيب والرسالة وجعل مؤسسات المجتمع في خدمة هذا المقصد حماية لعقيدة المسلمين ودرءا لكثير من الفتن التي أفسدت كثيرا من القلوب ونكبت كثيرا من الشعوب.

تتمة ص: 12

من معاني مصطلح الهجرة في القرآن الكريم — ص 2

التفقه في الدين: قراءة في التوجيهات النبوية وتصورات المجتمع — ص 3

السنن الإلهية في السيرة النبوية من خلال الهجرة النبوية — ص 10

لماذا تقدم المسلمون وتأخر غيرهم؟! — ص 13

انتخابات 7 أكتوبر 2016 سياقات ودلالات — ص 14

من معاني مصطلح الهجرة في القرآن الكريم

دة. كلثومة دخوش

مفهوم الهجرة من المفاهيم الكبرى التي كانت محددة للشخصية الإسلامية ومقوما أساسا من مقومات المجتمع في فترة من فترات التاريخ الإسلامي، يدل على ذلك مجموعة من الآيات القرآنية منها قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة: 218)، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (الأنفال: 74).

بل اعتبرت الهجرة شرطا في الموالاة بين المسلمين كما جاء في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾ (الأنفال: 72).

ولقد وعى المسلمون بناء على ذلك قيمة الهجرة وعظم شأنها، ويكفي للدلالة على احتفائهم واعتزازهم بها أن جعلوها بداية للتأريخ الإسلامي، ذلك أنها كانت حدثا مفصليا في تاريخ الإسلام، وبها انتقل المسلمون إلى واقع جديد تمثل في ظهور الدين وعلو شأن أهله من خلال إقامة شعائر محددة للمجتمع الإسلامي ومميزة له عن سائر المجتمعات، كما قال السرخسي في شرح السير الكبير: (فإن ظهور أعلام الدين كَالْجُمَعِ وَالْأَعْيَادِ وَأَمْنَ المسلمين مِنْ أَذَى الْمُشْرِكِينَ إنما كان من ذلك الوقت، فجعلوا التاريخ من وقت الهجرة لهذا).

ومعلوم أن الهجرة من مكة إلى المدينة قد سُبقت بهجرة المسلمين إلى الحبشة في وقت تمادى فيه كفار قريش في التنكيل بالمؤمنين وتعذيبهم، ففروا ببذرة الدين التي استنبتت في نفوسهم، تلك البذرة الطيبة للخير الذي سيعم لاحقا الإنسانية جمعاء، كما هاجر النبي إلى الطائف بحثا لتلك البذرة عن منبت صالح يحتويها فيمدها بالعناصر الصالحة للنمو.

غير أن الهجرة المقصودة عند إطلاق اللفظ هي ذلك الانتقال من مكة إلى المدينة، هذه المدينة التي وهبها أهلها ووهبوا أنفسهم معها لله تعالى ولدينه ولنبيه، وبذلوا أنفسهم وأموالهم لدين الله بعد أن عرفوا حلاوته في النفوس، ولذلك لم تكن الهجرة لتصبح هذا الحدث الذي نتحدث عنه اليوم لولا الأنصار الذين أصبح اسمهم علما يتحدد بمفهوم يقابل الهجرة ويحدد الموقف منها، وهو مفهوم النصرة أو الإيواء الذي اعتبر هو الآخر محددا للشخصية المسلمة عند الطرف الآخر ذي الموقف الخاص من الهجرة، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ (الأنفال: 72).

غير أننا، بتأمل الآيات القرآنية المشتملة على مستعملات مادة (هجر) في القرآن الكريم، نجدها غير مختصة بهذا المعنى المتمثل في الانتقال من دار الكفر إلى دار الإيمان، الأمر الذي ينسجم مع معنى المادة في أصلها اللغوي، فقد جاء في مقاييس اللغة لابن فارس أن: "الْهَاء وَالْجِيم وَالرَّاء أَصْلَانِ: يَدُلّ أَحَدُهُمَا عَلَى قَطِيعَة وَقَطْع، وَالْآخَرُ عَلَى شدّ شَيْء وَرَبْطه". ثم قال: "فَالْأَوَّل الْهَجْرُ: ضدّ الْوَصْل. وَكَذَلِكَ الْهِجْرَانُ. وَهَاجَرَ الْقَوْمُ مِنْ دَار إِلَى دَار: تَرَكُوا الْأُولَى لِلثَّانِيَةِ"، وقال الراغب الأصفهاني: "الهَجْرُ والهِجْرَانُ: مفارقة الإنسان غيره، إمّا بالبدن، أو باللّسان، أو بالقلب".

وخلاصة ما يمكن قوله بخصوص هذا المفهوم القرآني، أن الهجر والهجران والهجرة وإن كانت بينها فروق في الاستعمال اللغوي عموما، إلا أن بعض استعمالات المادة يتحد في القرآن والحديث، بل وفي اللغة أيضا، يدل على ذلك تعريف الراغب السابق للمادة، الذي جمع فيه معنى الهجرة والمهاجرة حيث قال: "الهَجْرُ والهِجْرَان: مفارقة الإنسان غيره، إمّا بالبدن، أو باللسان، أو بالقلب"، فأدخل عمل البدن الذي يصطلح عليه عادة بالهجرة في مسميات المادة، كما يدل لذلك قول الرسول ﷺ في الحديث الصحيح: «المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ»، وبناء على ذلك فلمادة (هجر) في القرآن الكريم مستويان:

- الأول: الهجرة إلى الله تعالى بالانتقال البدني من مكان إلى آخر، وهذا المستوى ينقسم إلى درجتين: تتمثل الأولى في الانتقال النهائي من مكان إلى آخر في سبيل الله ونصرة لدينه، وهذا هو المفهوم الذي يقصد عند إطلاق لفظ الهجرة، وهو الذي سبق الحديث عنه. وهو مفهوم مرتبط بزمن ومكان مخصوصين، ولقد انقطعت هذه الهجرة بفتح مكة بنص الحديث الصحيح المتفق عليه: «لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ»، إلا أن بعض المفسرين رأوا أن الهجرة، وإن انقطعت بعد الفتح كما جاء في الحديث الشريف، إلا أنها قد تشرع عند الحاجة، من ذلك قول الرازي: "الْأَصَحُّ أَنَّ الْهِجْرَةَ انْقَطَعَتْ بِفَتْحِ مَكَّةَ لِأَنَّ عِنْدَهُ صَارَتْ مَكَّةُ بَلَدَ الْإِسْلَامِ، وَقَالَ الْحَسَنُ: الْهِجْرَةُ غَيْرُ مُنْقَطِعَةٍ أَبَدًا، وَأَمَّا قَوْلُهُ عليه السلام: «لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ» فَالْمُرَادُ الْهِجْرَةُ الْمَخْصُوصَةُ، فَإِنَّهَا انْقَطَعَتْ بِالْفَتْحِ وَبِقُوَّةِ الْإِسْلَامِ. أَمَّا لَوْ اتَّفَقَ فِي بَعْضِ الْأَزْمَانِ كَوْنُ الْمُؤْمِنِينَ فِي بَلَدٍ وَفِي عَدَدِهِمْ قِلَّةٌ، وَيَحْصُلُ لِلْكُفَّارِ بِسَبَبِ كَوْنِهِمْ مَعَهُمْ شَوْكَةٌ وَإِنْ هَاجَرَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ تِلْكَ الْبَلْدَةِ وَانْتَقَلُوا إِلَى بَلْدَةٍ أُخْرَى ضَعُفَتْ شَوْكَةُ الْكُفَّارِ، فَهَهُنَا تَلْزَمُهُمُ الْهِجْرَةُ عَلَى مَا قَالَهُ الْحَسَنُ، لِأَنَّهُ قَدْ حَصَلَ فِيهِمْ مِثْلُ الْعِلَّةِ فِي الْهِجْرَةِ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ" (مفاتيح الغيب، 519/15).

وتتمثل الدرجة الثانية في الانتقال البدني المؤقت نصرة لدين الله عبر فريضة الجهاد في سبيل الله، وهذا المعنى للهجرة هو ما يشكل تمحيصا لإيمان المؤمن، ووسيلة للتمييز بين المؤمن والمنافق كما ورد في قوله عز من قائل، خطابا للمؤمنين بخصوص ضوابط تعاملهم مع المنافقين: ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (النساء: 89).

- المستوى الثاني للهجرة، وهو لا يقل أهمية عن المستوى الأول، وهو أيضا على درجتين:

الأولى: تدخل في نطاق ما يتعلق بالاستعداد النفسي لتبوء درجة الإصلاح والدخول ضمن زمرة المصلحين، وهو يشكل مقوما من مقومات شخصية المؤمن المصلح، الذي ينفع الله على يديه البلاد والعباد، وهذه الدرجة رفع الله إليها نبيه بواسطة إرشاده وتوجيهه وإعداده للرسالة، إذ كان من أوائل ما خوطب به النبي ﷺ قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ (المدثر: 1-7).

والدرجة الثانية: تتمثل في الإعراض عن الغير إعراضا يقصد به وجه الله تعالى، وهذا ما ورد في التوجيه الذي خاطب الله نبيه ﷺ أيضا في قوله عز من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ (المزمل: 1-10).

> **الهجر الوارد في سورة المزمل، فيقصد به تلك المعاملة الخاصة التي يجب على من يتصدى للإصلاح أن يواجه بها دعاة الباطل الذين يقفون في وجه عملية الإصلاح، ويعرقلون مهمة المصلح، ولقد وصف هذا النوع بالجمال ﴿واهجرهم هجرا جميلا﴾؛ لأنه هجر في الله وفي سبيل دعوته، لا هجرا في سبيل رد الاعتبار للنفس أو هجرا بغرض الانتقام من دعاة الباطل؛ لأن الهجر في الله يحتم الانضباط لشروط الدعوة إلى الله بالتي هي أحسن، مع نبذ الكراهية لشخص المخالف**

ويمكن القول، في إطار الفروق بين الخطاب بالهجر الوارد في السورتين، أن الهجر في سورة المدثر أعم منه في سورة المزمل؛ لأنه توجيه عام لهجر كل ما يغضب الله تعالى، من عبادة ما سواه وفعل ما ينهى عنه، فكأنه يدخل في إطار ما يسمى بالاستعداد النفسي لتحمل مسؤولية عظمى، ذلك أن مسؤولية من شاكلة إصلاح النفوس لابد لمن يتصدى لها أن تكون نفسه من القوة والثبات بحيث يمكنه إصلاح غيره والصبر على أذاه، أضف إلى ذلك ما يجب أن يقدمه هذا المصلح من قدوة حسنة تشجع على فعل ما يلتزم به من سلوك قبل أن يدعو إليه، ولا شك أن ترك المعاصي وهجران الرذائل يحقق الغرضين: قوة النفس وصلاح القدوة. قال القشيري في لطائف الإشارات: "قوله جل ذكره: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ أي: المعاصي. ويقال: الشيطان. ويقال: طهّر قلبك من الخطايا وأشغال الدنيا. ويقال: من لا يصحّ جسمه لا يجد شهوة الطعام، كذلك من لا يصحّ قلبه لا يجد حلاوة الطاعة".

أما الهجر الوارد في سورة المزمل، فيقصد به تلك المعاملة الخاصة التي يجب على من يتصدى للإصلاح أن يواجه بها دعاة الباطل الذين يقفون في وجه عملية الإصلاح، ويعرقلون مهمة المصلح، ولقد وصف هذا النوع بالجمال ﴿واهجرهم هجرا جميلا﴾؛ لأنه هجر في الله وفي سبيل دعوته، لا هجرا في سبيل رد الاعتبار للنفس أو هجرا بغرض الانتقام من دعاة الباطل؛ لأن الهجر في الله يحتم الانضباط لشروط الدعوة إلى الله بالتي هي أحسن، مع نبذ الكراهية لشخص المخالف؛ لأن المقصود بالرفض والتصحيح هو سلوكه، أما شخصه فالله تعالى هو وحده من يتولى أمره، فيغفر سبحانه لمن يشاء ويعذب من يشاء، كما أنه وحده من يتولى أمر نصرة دينه، وما المصلح إلا شخص اختاره الله واستعمله لتحقيق هذا المطلب تفضلا منه سبحانه عليه لينال أجر هذا العمل وفضله.

ولقد قال السعدي في معرض تفسيره للآية: "وأن يهجرهم هجرا جميلا وهو الهجر حيث اقتضت المصلحة الهجر الذي لا أذية فيه، فيقابلهم بالهجر والإعراض عنهم وعن أقوالهم التي تؤذيه، وأمره بجدالهم بالتي هي أحسن".

ويدل على علاقة العموم والخصوص بين الاستعمالين في السورتين، أن سورة المزمل وإن ورد أنها مرتبة من حيث النزول قبل سورة المدثر؛ إلا أن الآيات المشتملة على الهجر في سورة المزمل نزلت بعد سنة من نزول صدر السورة، حيث جاء في كتاب الإتقان للسيوطي أن قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ "نَزَلَ بَعْدَ نُزُولِ صَدْرِ السُّورَةِ بِسَنَةٍ، وَذَلِكَ حِينَ فُرِضَ قِيَامُ اللَّيْلِ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ قَبْلَ فَرْضِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ"، أي بعد أن واجه المشركون النبي ﷺ ورفضوا دعوته التي كان قد استعد لتبليغها، من ضمن ما استعد به، بهجر السوء من القول والفعل بما جبله الله عليه من صفات وخلق، ثم بما رباه به وأدبه به من توجيهات على غرار ما جاء في سورة المدثر.

خلاصة هذه التأملات المتواضعة لمادة (هجر) في القرآن الكريم أن الهجر والهجرة لها مستويان، ولكل مستوى خصائص:

- أحدهما: الهجر المتمثل في الإعراض عن السوء وأهله، وهو على درجتين: الأولى تتمثل في الاستعانة على إصلاح أهل السوء بهجر هذا السوء، باعتبار هذا الهجر مقوما لإصلاحهم كما سبق بيانه، والثاني بهجرهم هجرا جميلا متى استنفذت وسائل الإصلاح.

- والثاني وهو المفارقة البدنية لهم عندما يصبحون خطرا على بذرة الإيمان والصلاح في نفوس المصلحين أنفسهم، وهو الذي اصطلح عليه بالهجرة.

وتبقى الإشارة إلى أن ترتيب هذين المستويين ليس مطردا، فقد يسبق أحدهما الآخر بحسب حال المهاجر قوة وضعفا، وبحسب حال من يهجرهم، وإن كان الهجران المتمثل في ترك ما نهى الله عنه واجبا على كل مسلم، ونفعه يتعدى الملتزم به إلى مجتمعه متى كان هذا الملتزم به ممن يتصدى للدعوة إلى الله، أو يحمل راية إصلاح أحوال مجتمعه وأمته، وفيه تجتمع أوجه المتاركة والهجر بالبدن وبالقلب وباللسان لكل سلوك أو قول غير قويم، وبذلك ينال المؤمن فضل التأسي بالنبي ﷺ الذي أمر بهجر الرجز فامتثل، فكان خير المربين المعلمين الصابرين المحتسبين، وكانت وسيلته إلى ذلك هي الصبر الذي أمر به في آخر التوجيه الوارد في هذا الخطاب الإلهي الحكيم، قال النيسابوري: "وعن الحسن وغيره أنه لما أمره الله بإنذار القوم وتكبير الرب وتطهير الثياب وهجران الرجز قال: وَلَا تَمْنُنْ على ربك بهذه الأعمال الشاقة كالمستكثر لما تفعله بل اصبر على ذلك كله، ويؤكده قوله بعد ذلك: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾، أي استعمل الصبر في مظانه خالصا لوجه ربك".

والله أعلم وأحكم.

التفقه في الدين:
قراءة في التوجيهات النبوية وتصورات المجتمع (1)

ذ. محمد البخاري

عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم والله يعطي، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله، لا يضرهم من خالفهم، حتى يأتي أمر الله» (صحيح البخاري).

التفقه في الدين ضرورة دينية وكونية واجتماعية؛ فهو الساهر على حفظ مصالح البلاد والعباد، وركن أساسي لبناء مجتمع تقام فيه العدالة، وتصان فيه الكرامة. هذا الدور القيادي للفقه غاب عن واقعنا منذ زمن ليس بالقصير، وتكونت للناس بخصوصه تمثلات خاطئة روجت لخدمة أهداف معينة. مما يجعلنا نتساءل: ما الغاية من نشر هذه الشبهات عن الفقه والفقيه؟ وهل لها مستند علمي موضوعي؟ وكيف يمكننا في المقابل إعادة الفقه والفقيه إلى قيادة سفينة المجتمع لترسو على شواطئ النجاة؟

أولا: التفقه في الدين وأهم مقومات تحقيقه:

يقول ﷺ: «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين» فالتفقه في الدين خاضع لإرادة الله تعالى، قال ابن حجر: "هذا الحديث مشتمل على ثلاثة أحكام: ...ثانيها: أن المعطي في الحقيقة هو الله(1)"، وللتوافق مع هذه الإرادة يلزم مريد التفقه تحصيل ما يلي:

1 ـ إخلاص النية لله تعالى في طلب العلم الشرعي؛ لأنه وسيلة لتحقيق معرفة الله وعبادته، قال النووي معلقا على هذا الحديث: "فيه فضيلة العلم.. وسببه أنه قائد إلى تقوى الله تعالى"(2). فهو يخرج الإنسان من دائرة الشهوات المنحطة، إلى مدار التكليفات الشرعية، فيكون هواه تبعا لما شرع الله، ويؤكد هذا الشرط قوله ﷺ: «من تعلم علما لغير الله أو أراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار» (سنن الترمذي، وقال: هذا حديث حسن).

فإذا كان قصد مريد التفقه في الدين إنذار الناس وتحذيرهم فلا شك أن الله سيفتح له باب المعرفة، ويضيء قلبه بنور الإيمان، فيدرك حقيقة الأشياء ويعلم بواطنها؛ لقوله ﷺ: «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم والله يعطي»، فالله هو المعلم والمعطي لعبده.

إن تعلم الأحكام الشرعية واجب على كل مسلم ومسلمة بحسب القدر الذي يضبط به عقيدته، ويصحح به عبادته، ويعرف به ما ينظم شؤونه اليومية مما لا غنى له عنه، قال ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم» (سنن البيهقي). أما التخصص والتبحر في الفقه فهو فرض كفاية، لقوله تعالى: ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾ (التوبة: 122).

وعليه؛ فالتفقه في الدين أمر ضروري؛ لأنه لا تستقيم حياة المسلمين بدون ذلك، فهو السبيل للنجاة من عقاب الله تعالى، أما باقي العلوم الدنيوية فهي خادمة له، ومعينة على تحقيق مقاصده؛ فالعلوم الكونية لوحدها دون معرفة شرع الله والالتزام به، تحقق فقط مصالح الدنيا الفانية، فهي بهذا المعنى لا تعدو أن تكون حرفا متطورة للتكسب، فعلم الطب، والهندسة، والكيمياء، والفيزياء، والرياضيات وغيرها.. من العلوم التي تيسر حياة الناس في الدنيا إذا لم توصل لمعرفة الخالق ولتطبيق أحكامه، فهي من قبيل الحرف والمهن؛ ولا يدخل صاحبها في شرف قوله تعالى: ﴿فاعلم انه لا اله إلا الله واستغفر لذنبك﴾ (محمد: 19).

2 ـ التلقي المباشر عن الفقهاء الراسخين في العلم؛ أقصد بذلك الاعتماد على العلماء الربانيين، المشهود لهم بالكفاءة العلمية، والملكة الراسخة، والمنهج القويم في استنباط الأحكام وتنزيلها، فهم وقاية المجتمع من الوقوع في الزلل؛ لأنهم حققوا شرط الصلاح والتقوى، والعدالة والتزكية، لقوله ﷺ: «إنما أنا قاسم والله يعطي» فالله فتح عليهم أبواب الفهم وخصهم به، فالأخذ عنهم أسلم للأمة، لتحقق الاستقلالية التامة لهم، فلا يتأثرون بسلطة، أو مال، أو انتماء لجهة ما.

فالفقيه الرباني يضمن للأمة تربية سليمة موافقة لشرع الله، إذ لا تربية صحيحة مع الجهل بأحكام الشرع، قال ﷺ: «فقيه أشد على الشيطان من ألف عابد» (سنن الترمذي)، قال: هذا حديث غريب. وهذا مدخل آخر تساهل فيه الناس فكثرت مفاسده؛ نتيجة ما تقوم به بعض الجماعات التي تتبنى التربية المجردة عن الأحكام الفقهية، فيكون منهجها بعيدا عن الشرع، وخاضعا لهوى المربي، والغريب أنهم يتبنون أطروحة عدم الحاجة إلى معرفة الأحكام الفقهية، بل يكفيهم كما يزعمون معرفة القيم والمقاصد الشرعية المجردة، ولست أدري كيف تؤسس القيم والمقاصد دون معرفة الأحكام الشرعية؟

كان النبي ﷺ يوحى إليه، ووفق هذا الوحي يعلم ويربي؛ فبالعلم نعرف الله تعالى، ونعرف الحلال والحرام، ثم نعمل وفق ذلك، فتكون التربية صحيحة، وهذا ما أكده البخاري بقوله ﷺ: «باب العلم قبل القول والعمل» (صحيح البخاري). فلا يمكن الفصل بين الفقه والتربية، فكل فقيه مربي بالضرورة، ولا نتصور تربية دون فقه؛ لأن التربية سلوك وعمل ولا عمل موافق لمراد الله دون فقه. فالمنهج ثلاثي: التلقي من الوحي بواسطة التفقه، ثم التبليغ والتعليم، ثم العمل والتربية.

كما أن أخذ الفقه من بعض الكتب، أو الأشرطة، أو المواقع مباشرة دون اعتماد منهج التدرج في التعلم على الفقهاء طريق إلى الزلل؛ فالفقه صنعة تحتاج إلى صانع حاذق يعلم الناس، ثم إن أخذ الفقه بمجالسة العلماء يتم بعد معرفة كفاءتهم وحالهم من الصلاح والتقوى، وهذا لا يتأتى بالاقتصار على الكتب، والأشرطة، والمواقع، ولا يضمن الفهم السليم للأحكام، لذلك فهذا المنهج يؤدي إلى نشر الفتن بين الناس وتمييع الفتاوى الفقهية عبر وسائل الإعلام المغرضة.

ثانيا: ثمرات التفقه في الدين:

تظهر هذه الثمرات في قوله ﷺ: «مَن يرد الله به خيرًا يُفقِّهه في الدين... ولن تزال ...الخ»، فتنكير «خيرا» في الحديث يفيد أن أي تفقه صحيح في الدين قليلا كان أم كثيرا فإنه يحقق للناس مطلق الخير ليشمل بذلك:

1 - الوقوف عند حدود الله تعالى:

● بمعرفته حقا وصدقا؛ مما يضمن عقيدة سليمة وصحيحة، قال تعالى: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم﴾ (آل عمران: 18)؛ لأن كل اعتقاد خاطئ تعقبه تصرفات اجتماعية منحرفة فاسدة؛ كالشرك بالله، والشعوذة، والسحر... وكل ذلك يفوت سعادة الدنيا والآخرة معا.

● بعبادته كما أراد أن يعبد؛ بعيدا عن البدع وشطحات الهوى؛ فالعبادة الصحيحة تضبط سلوك الأفراد وتحميهم من الانغماس في المعاصي، وهذا لا يحصل إلا إذا كانت العبادة بعلم، لهذا قال ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم» (سنن الترمذي)؛ لأن الفقيه يحقق في عبادته الشروط كاملة.

● بتمييز الفرق بين المنكر فيحاربه وبين المعروف فيدعو إليه؛ لقوله ﷺ: «وإن العلماء ورثة الأنبياء..» (صحيح مسلم). لأن مهمتهم التبليغ والبيان، مما يضمن تحقيق التوازن في العلاقات الاجتماعية، والحفاظ على المصلحة العامة.

● بنشر القيم النبيلة الموافقة لضوابط الوحي ومقاصده؛ ونبذ المفاهيم والتصورات الغربية المتطرفة، التي تحميها قوانينهم، وتروج لها وسائل إعلامهم، مثل الزواج المثلي، وحرية الدعارة... لتعارضها مع أحكام الإسلام والفطرة السليمة، قال ﷺ: «إن مثل العلماء في الأرض كمثل نجوم السماء، يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، فإذا انطمست النجوم يوشك أن تضل الهداة» (مسند أحمد).

2 - الحفاظ على مصالح العباد:

● ببناء مجتمع آمن مستقر؛ يتحقق فيه التكامل بين الجسد والروح، وبين العقل والقلب، وبين العبادة والعمل، وبين العلم الرباني والمعرفة الكونية، لتحقيق خلافة الله في أرضه، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالتفقه في الدين، فبدونه تنفلت الأمور من عقالها وتعظم المصائب؛ فمهما تقدم الناس في تحصيل العلوم الكونية؛ فهي وحدها دون رقابة شرعية تهدم المجتمع ولا تبنيه؛ لأن أهلها يؤمنون بأن البقاء للأقوى وليس للأصلح، ومن يشكك في ذلك فليبحث في التاريخ كيف اشتعلت حروب الإبادة؟ ومن أين انطلقت؟ ومن استعمل الأسلحة النووية؟ ولأي غرض تم ذلك؟ فأين اختفت قيمهم الإنسانية حينما قتلوا الملايين من الناس لأسباب واهية؟

● بتحقيق تنزيل الشريعة على واقع الناس وتوجيهه نحو الخير؛ وفق ما تسمح به قواعدها المرنة، ومقاصدها المستوعبة؛ فالتفقه السليم في الدين يضمن للأمة الحكم الشرعي الصحيح الذي يساير واقع الناس، وينبذ كل واقع منحرف غريب عن شريعتنا يستهدف غزو هويتنا وحضارتنا.

فوظيفة الفقيه المتقي والمستقل بناء الواقع السليم، وهدم الواقع السقيم بالحكمة، وهذا ما يفيده قوله ﷺ: «ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله، لا يضرهم من خالفهم، حتى يأتي أمر الله».

● بتطهير البلاد من الفساد؛ فالطبيب، والمهندس، والتاجر، والمدرس، والسياسي، إذا كان متفقها بقدر ما يعرف به ما علم من الدين بالضرورة، وبقدر ما يعرف به حكم الله في طبيعة عمله؛ فإنه سيحصل فيه قدر من الخير وسيتوقف ولا شك عند هذه الأحكام، ويعمل وفق قيمها ومقاصدها، ولن يقدم مصالحه الخاصة على حساب مصالح العامة؛ لأنه يعلم حكم الله في ذلك. هذه الاستقامة التامة لم تتحقق في واقعنا تحققا تاما وشاملا؛ لأننا تعلمنا في مدارس الغرب، ووفق برامجه ومناهجه التي تركز على ضمان سيطرته وتقوية نفوذه، فصرنا عالة عليهم نعيش تحت رحمتهم التشريعية والاقتصادية، والصناعية، والخدماتية...

==========

1 – فتح الباري، ابن حجر، ج1، ص:164

2 – شرح مسلم، النووي، ج7 ص128.

(يتبع)

قسيمة الاشتراك

الاسم الكامل : .....

العنوان الكامل :.....

.....

الاشتراك السنوي : 20 عددا

■ داخل المغرب : 60 درهم

■ خارج المغرب : 20 أورو أو ما يعادلها

ترسل الاشتراكات باسم :

● جريدة المحجة عن طريق الحوالة البريدية

● أو جريدة المحجة على حساب وكالة البنك الشعبي (الموحدين فاس)

رقم : 2111113412900014

أما قسيمة الاشتراك والوصل فيبعثان إلى مقر الجريدة على العنوان التالي :

جريدة المحجة حي عز الله، زنقة 2، رقم 3، الدكارات،

فاس – المغرب

الآراء الواردة في مقالات الجريدة تعبر عن وجهة نظر أصحابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي الجريدة

جريدة المحجة
المدير المؤسس: ذ. المفضل فلواتي
المدير المسؤول: د. عبد العلي حجيج
مسؤول الإخراج: رشيد صدقي
الموقع الاكتروني: www.almahajjafes.net
البريد الاكتروني: almahajjafes@gmail.com
عنوان المراسلة: حي عز الله، زنقة 2 رقم 3 فاس المغرب
الهاتف: 0535931113
الناسوخ: 0535944454
الإيداع القانوني: 1994-61
رقم الصحافة: 91/11
الترقيم الدولي: 3627-1113
الطبع: إكوبرانت
التوزيع: سابريس

السرية في السيرة النبوية

لقد أوصى رسول الله ﷺ بضرورة الاستعانة بالكتمان على قضاء الحوائج؛ حيث قال عليه السلام: «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان» (رواه الطبراني في الثلاثة). ولعل سيرته عليه السلام مليئة بكثير من مواقف الامتثال لهذه الوصية.

لقد أخبر الله تعالى في كتابه بكثير من مواقف الكتمان التي كان لها الآثار المحمودة على أصحابها من ذلك قول الله تعالى على لسان نبيه يعقوب: ﴿يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا﴾ (يوسف: 5)، وقوله تعالى: ﴿وقال رجل مومن من آل فرعون يكتم إيمانه﴾ (غافر: 28)... ولا يخفى على ذي لب أنه بالكتمان يستطيع أن ينجز أكثر مما يصبو إليه بعكس ما إذا كان يفشي أسراره؛ لأنه يعيش داخل مجتمع في أخيار وفيه أشرار، وكل منهم يفعل فعله ويقوم بواجبه، فإذا فتح الباب للأشرار آذوه بشرهم وحالوا بينه وبين مراده خصوصا إن كان فيه مصلحة له ولقومه. ولذلك فكلما كان الإنسان كتوما استطاع أن يحقق أهدافه في أمان تام.

لقد كان من بين أسرار نجاح الدعوة الإسلامية اعتماد قائدها ﷺ على كتمان أسرارها في كثير من الأحايين والمواقف نذكر منها:

أولا: سرية الدعوة منذ بدايتها (المرحلة السرية)

لما بعث عليه السلام أمره تعالى أن يدعو الناس إليه سرا لا جهرا، وفي ذلك حكم كثيرة، فلو بدأت الدعوة علنا لماتت قبل رشدها، فكان عليه السلام يدعو من يثق به من أصحابه سرا إلى عبادة الواحد الأحد، واتخذ بيت الأرقم بن أبي الأرقم مكانا سريا لا تعرفه قريش لتعليم مدعويه تعاليم الإسلام السمحة، ومن أبرز المواقف في هذا المقام: دعوته لعي بن أبي طالب رضي الله عنه حين رآه يصلي هو وخديجة رضي الله عنها وسأله ما هذا؟ قال: «دين الله الذي اصطفى لنفسه وبعث به رسله، فأدعوك إلى الله وحده لا شريك له وإلى عبادته وأن تكفر باللات والعزى». فقال علي: هذا أمر لم أسمع به من قبل اليوم، فلست بقاض أمرا حتى أحدث به أبا طالب. فكره عليه السلام أن يفشي سر الدين قبل أن تقوى شوكته، فقال له: «يا علي إن لم تسلم فاكتم»، فامتثل رضي الله عنه للأمر وأخفاه على أبويه، وفي اليوم الموالي أتى النبي ﷺ وأعلن إسلامه. وقد أثر عنه رضي الله عنه القولة الشهيرة: "سرك أسيرك، فإن تكلمت به صرت أسيره".

واستمرت الدعوة السرية ثلاث سنوات حتى إذا اشتدت شوكة الإسلام وقوي عودها، أمره تعالى بالجهر بها، قال تعالى: ﴿فاصدع بما تومر﴾ (الحجر: 94).

ثانيا: سرية الهجرة النبوية إلى المدينة المنورة

إن هجرة الرسول ﷺ لتمثل أعظم الدروس في السرية والكتمان، فعندما أذن له تعالى بالهجرة أعد العدة وأحكم الخطة وأخذ الحيطة والحذر، فكان كما قال عليه السلام مؤمنا كيسا فطنا، حرصا منه على حماية الدعوة بعدما اشتد الضغط عليها في مكة.

والمطلع على أحداث الهجرة يدرك أنه ﷺ قد أحاطها بسرية تامة، تجلى ذلك في جل أحداثها بدءا بإخفائها على قريش وعلى أقرب المقربين إليه، ثم اختيار وقت الهجرة وهو وقت الهزيع الأخير من الليل حتى لا يراه أحد، واستئجاره دليلا خبيرا ماهرا أمينا من بني عبد عدي، وكذلك اختياره طريقا غير الطريق المعهود عند قريش، بالإضافة إلى ما كان يقوم به فهيرة مولى أبي بكر الصديق حيث كان يروح عليهما كل يوم بغنيمات أبي بكر ليشربا لبنها ثم لتختفي آثار أقدامهما تحت أرجل الغنم إلى غير ذلك. لقد كان عليه السلام يعلم أمته كيف يكون قائدها عند الوقوع في أمثال هذه المواقف، إنه يعلم الأمة كيفية التخطيط والتدبير لكل خطواتها.

ثالثا: السرية والكتمان في السرايا والغزوات

إن كتمان الأسرار من أعظم أسرار النصر على الأعداء، فمما ساعد رسول الله ﷺ على النصر على أعدائه أن كثيرا من أسراره كانت محفوظة ومصونة لا تصل إلى المشركين، فكانت جميع الغزوات والسرايا وخططها تتم في سرية تامة. فعن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: "ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورّى" (صحيح البخاري، رقم 2787). والتورية أن يقول الإنسان قولا يحتمل أكثر من معنى وهو لا يريد إلا معنى واحدا والسامع يفهم معنى آخر. وسأقتصر هنا على حدثين تجلت فيهما هذه السرية أكثر من غيرهما وهما:

1 - سَريَّة عبد الله بن جحش:

أرسل عليه السلام سرية بقيادة عبد الله بن جحش (وكتب له كتابا وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه، فيمضي لما أمره به، ولا يستكره من أصحابه أحدا. فلما سار بهم يومين فتح الكتاب فإذا فيه: «إذا نظرت في كتابي فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم». فلما نظر في الكتاب قال: سمعًا وطاعة. وأخبر أصحابه بما في الكتاب، وقال: قد نهاني أن أستكره أحدًا منكم فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، فأما أنا فماض لأمر رسول الله ﷺ، فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف منهم أحد). (سيرة ابن هشام، سرية عبد الله بن جحش).

2 - غزوة فتح مكة:

لقد بلغ عامل الكتمان في غزوة فتح مكة حد الروعة والكمال، فعندما عزم رسول الله ﷺ على الخروج أمر أهله أن يجهزوه للخروج؛ ولكنه لم يخبر أحدا عن وجهته؛ بل أخفى ذلك حتى عن أقرب المقربين إليه وأحبهم إلى قلبه، عائشة أم المؤمنين وأبوها أبو بكر الصديق رضي الله عنهما، وكل ذلك منه أخذا للحيطة والحذر وخوفا من بلوغ الخبر قريشا وانكشاف أمره. فلم يخبر صحابته بوجهته إلا بعد بث عيونه وأرصاده في كل مكان، وتيقنه من عدم بلوغ الخبر لقريش، فكان ما كان من رسالة حاطب بن أبي بلتعة وامرأته إلى قريش التي حال دون وصولها علي بن أبي طالب والزبير بن العوام والمقداد بن الأسود رضوان الله عليهم بأمر من رسول الله ﷺ. فلم يبلغ الخبر قريشا حتى اقتربت جيوش المسلمين منها، فكان الفتح الكبير الذي وعد الله به نبيه عليه السلام. ﴿إنا فتحنا لك فتحا مبينا﴾ (الفتح: 1).

وفي الختام يمكن أن نستخلص مجموعة من الأمور:

- أن السرية أسلوب نهجه النبي ﷺ في مواطن معينة ولغايات محددة: في موطن تدبير أمور الدعوة وإدارة الدولة، وفي مواطن الحروب. ولغاية حفظ الدعوة في بداية الانطلاق والضعف، ولذلك فالعمل به يحتاج إلى فقه في الدين والدعوية رصين، وفقه في الواقع متين.
- أن السرية وسيلة تأخذ حكم الغاية وتخضع لطبيعة الظرف، ونوع العمل.
- أن السرية في الدعوة لا ينبغي أن تؤدي إلى الانغلاق عن المجتمع والشك في الجميع وممارسة التقية إلى حد تسويغ ارتكاب المحرمات بذريعة السرية، لاعتبارات منها:

أولا: أن السرية التي عمل بها رسول الله ﷺ لم يثبت فيها ارتكابه لمحرم؛ لأن الأصل في الدعوة أن لا يتقرب إلى الله تعالى بالحرام.

ثانيا: أن النبي ﷺ خلال مرحلة السرية ظل يدعو من يثق فيه من خيار قومه.

ثالثا: أن رسالة الإسلام رسالة الانفتاح على الناس والإقناع بالحجة.

رابعا: أن الوضوح في الخطاب والعمل له آثار إيجابية في نشر الدعوة وقبولها والاقتناع بها.

محمد معطلاوي

الإمام السهيلي وأهمية كتابه في السيرة النبوية

الإمام السهيلي هو عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد الخثعميّ السهيليّ الأندلسي المالقي (508-587هـ).

أهمية كتابه في السيرة:

إن أهمية أيّ كتاب في أيِّ علم من العلوم الإسلامية، تتجلى في انفراده عن باقي الكتب بمميزات وخصائص، واحتوائه على فوائدَ ونوادر، تجعلُ منهُ محطَ اهتمام العلماء والدارسين والباحثين، فيتناولونه بالشرح أو التلخيص أو غير ذلك.

وكتاب "الروض الأُنف" لمؤلفه الشيخ السهيلي، يعتبر من أنفس وأعظم ما صنف في مجال السيرة، وذلك راجع لأسبابٍ عديدة، أهمها:

1 - أنه اشتغل على أهم مصدر في السيرة النبوية، وهو: سيرة ابن هشام المعافري، ت: 213 هـ، الذي لخص سيرة ابن إسحاق، ت: 151 هـ.

2 - كونه أول عالم نهج هذه الطريقة في معالجة كتب السيرة، حيث خالف المنهج السائد الذي كان موجوداً في التعامل مع سيرة رسول الله ﷺ (1).

3 - لم يكن الإمام السهيلي مجرد شارحٍ لما وردَ في سيرة ابن هشام، وإنما كان أيضا مستدركاً ومتعقباً وَناقداً وموازناً(2).

4 - أن كتابه هذا جمُّ الفوائد، عديد المنافع؛ إذ ضمنهُ جملةً من مختلف العلوم الشرعية، والمعارف الإسلامية، كما نبه على ذلك صاحب كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، إذ يقول: "تحصل فيه من فوائد العلوم، والآداب، وأسماء الرجال، والأنساب، ومن الفقه الباطن، اللباب، وتعليل النحو، وصنعة الإعراب، ما هو مستخرج من نيف على مائة وعشرين ديوانا، أو نحوها"(3).

5 - التزامه بالأمانة العلمية، حيث أنه كان ينسبُ كل قول إلى قائله، كما هو ملاحظٌ في كتابه.

6 - أنهُ لما اشتغل على سيرة ابن هشام، ونقّحها وهذّبها، صارَ بذلك مصدراً لا يُستغنى عنهُ في بابه.

7 - عظمة أي كتابٍ وأهميتهُ ترتبط بمدى عظمة مؤلِّفه وأهميته، ولا يخفى على العلماء وطلاب العلم أن الإمام السهيلي هو أحد أعظم الأئمة، وأرفعهم شأنا، وأعلاهم مقاماً، كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

هذه المميزات التي تميز بها كانت السبب الرئيس في عناية العلماء بهذا الكتاب النفيس، حيث عُنوا عناية فائقة بهذا الكتاب؛ إذ تناولوه بالاختصار والتلخيص، أو بالنّهل من فوائده ونوادره، والنقل عنه، والأخذ منه.

وممن اختصر الروض الأنف:

- الحافظ الذهبي ت: 748هـ، في كتابه: "مختصر كتاب الروض الأنف الباسم في السيرة النبوية الشريفة"، ويسمى أيضا: "بلبل الروض" كما قال الصفدي(4).
- محمد العجلوني، ت: 831هـ، له: زهر الروض(5).
- تقي الدين بن الكرماني، ت: 833هـ، له مختصر الروض الأنف(6).

أما الذين نهلوا من الروض الأنف، وأخذوا منه بحظٍّ وافر، وأكثروا من النقل عنهُ فهم كثرٌ، وأشهرهم الإمام ابن قيم الجوزية في كتابه: بدائع الفوائد(7).

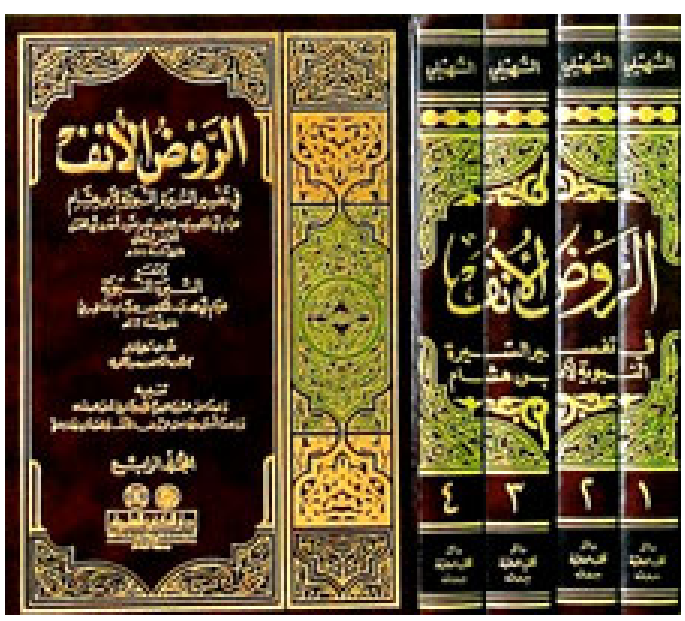

---

(1) المنهج السائد الذي وُجد بعد تأليف ابن هشام، هو الاهتمام بجزئية من جزئيات سيرة رسول الله، كدراسة الشمائل، أو دلائل النبوة، وغيرها.

(2) انظر مثلا، تعليقه على ابن اسحاق في "استيلاء أبي كرب تبان أسعد على ملك اليمن وغزوه إلى يثرب"، 80/1.

(3) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لحاجي خليفة، 917/1.

(4) جردها سبطه: زين العابدين بن عبد الرؤوف، المصدر السابق.

(5) معجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة، 23/9.

(6) درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، لتقي الدين المقريزي، 369/4.

(7) انظر مثلا بدائع الفوائد لابن القيم، ص: 21 إلى 34 وغيرها.

أنس القرباص

الهجرة وقفة تأمل

قال الله : ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: 40).

أرسل الله رسوله محمدا ﷺ إلى البشرية وهي أحوج ما تكون إلى رسالته، وأشدّ ما تكون ضرورة إلى دينه، كان الناس في ظلمات الشرك والجهل، والكفر والضلال، فأرسل الله رسوله ﷺ، مبشراً ونذيراً وداعياً إليه بإذنه وسراجاً منيراً.

وجد الرسول ﷺ الناس يعبدون آلهة شتى، فمنهم من يعبد الأشجار، ومنهم من يعبد الأحجار، ومنهم من يعبد الملائكة والجن والشمس والقمر، يلتجئون إليها في كشف الشدائد والكربات، ويرغبون إليها في جلب النفع والخيرات، يذبحون للأصنام ويركعون للأوثان، ويغشون مجالات الفواحش والمحرمات، يسيئون الجوار، ويقطعون الأرحام، ويكسبون الأموال لا يبالون أمن حلال أو حرام. جاء رسول الله ﷺ بدعوة الناس إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، بكل ما تضمنته هذه الشهادة من معنى.

جاء نبي الرحمة ﷺ يدعو الناس إلى العفاف والطهر والخلق الكريم والاستقامة وصلة الأرحام وحسن الجوار والكف عن المظالم والمحارم، جاء ﷺ يدعوهم إلى التحاكم إلى الكتاب والسنة، لا إلى الكهان ولا إلى حكم الجاهلية، جاء ﷺ يدعو إلى كسب المال من وجوه الحلال، وإنفاقه في الطرق المشروعة، وجعل الناس كلهم أمام شريعة الله سواء، لا يتفاضلون إلا بالتقوى، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: 33).

استجابت للرسول القلة المؤمنة المستضعفة في مكة، فأذاقهم المشركون أنواع العذاب، وضيّق عليهم الخناق، وائتمر المشركون بمكة على قتل رسول الله ﷺ، فكانت هجرته ﷺ.

كانت الهجرة نصراً للإسلام والمسلمين، حيث أبطل الله مكر الماكرين، وكيد الكائدين وتخطيط المشركين، والله من ورائهم محيط، قال الله تعالى: ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: 40).

لقد بينت وقائع الهجرة أنَّ العقيدةَ أغلى من الأرض، وأنَّ التوحيدَ أسمى من الديار، بينت وقائع الهجرة أنَّ الإيمان أثمنُ من الأوطان، وأنَّ الإسلامَ خير من القناطير المقنطرة من الذّهب والفضّة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث، ومن كل متاع الحياة الدنيا.

يتجلّى هذا المعنَى واضحاً في خروج النبيّ الكريم ﷺ مع صاحبه الصدّيق رضي الله عنه، مهاجرَيْن كما يصوّر الحديثُ الّذي أخرجَه الإمام أحمد في مسندِه والترمذيّ وابن ماجه بإسناد صحيح عن عبد الله بن عديّ بن حمراء الزّهريّ قال: رأيتُ رسول الله ﷺ واقفًا على الحَزْوَرَة قال: «والله، إنّك لخيرُ أرضِ الله وأحبُّ أرضِ الله إلى الله، ولولا أنّي أُخرِجتُ منك ما خرجتُ».

لقد رسمت وقائع هجرة الرسول ﷺ الكثير من صور الصدق والثبات واليقين، والثقة بالله والتوكل عليه، خاصة عند الشدائد، ومن ثم جاء الشعار الخالد الوارد في القرآن الكريم: ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾. أيُّ معيّة هذه التي يحس بها الرّسول؟ إنّها المعيّة الخاصّة التي تأتي بالنّصر والتّأييد، و المعونة والحفظ والتّوفيق.

دعا رسول الله ﷺ النّاس إلى هذا المعنى العظيم، دعا إلى دين قويم يرقى به الإنسان إلى أعلى المنازل، ويسعد به في الآخرة سعادةً أبدية في النعيم المقيم.

وانتصر الإسلام وارتفعت راية القرآن، وكان الله دوماً مع المؤمنين ناصراً وهادياً ومعيناً وحامياً، ثم شاء الله أن ابتليت أمة الإسلام في هذا العصر بالذل والهوان، ففقدت هيبتها، وأعجبت بأعدائها، واتبعتهم شبراً بشبر وذراعاً بذراع، سلط الكفار على رقاب المسلمين فأملوا عليهم فطبقوا، وأمروهم فأطاعوا، حتى هجرت معظم الدول الإسلامية تاريخها الإسلامي، فلا يكاد يعرف إلا في المواسم كرمضان والحج، لقد نسينا تاريخنا فأنسينا تأريخنا، وأضعنا أيامنا فضاعت أيامنا.

أصبح الواحد من المسلمين يسأل فيقول: كيف يكون المستقبل للإسلام، والأعداء قد اجتمعوا عليه وتكالبوا من كل جهة؟ وقد سلطوا عذابهم على المسلمين عامة، وعلى المتمسكين به خاصة؟ كيف يكون المستقبل للإسلام والأعداء يملكون القنابل النووية، والأسلحة الفتاكة، والمسلمون عزل لا يضمنون كسب قوتهم قوتهم ولا يستطيعون حماية أنفسهم؟ هل عجز الله عن نصرنا؟ أم أنه تخلى الله عنا؟ ألسنا مسلمين؟ هل الله معنا؟ بل هل نحن مع الله؟.

كم يبذل الأعداء من جهود وأموال من أجل إضلال المسلمين عن سبيل ربهم، وإبعادهم عن سنة نبيهم، من خلال المجلات الماجنة، و القنوات الهابطة، ومن خلال الدعوات الصريحة إلى التبرئ من الإسلام، واستبداله بالعلمانية والإلحاد.

لم تكن حادثة الهجرة طلبا للراحة ولا هرباً من العدو، لم تكن تهرباً من الدعوة وأعبائها، بل كانت بأمر من الله تعالى، ليقضي الله أمراً كان مفعولا. إن الهجرة المباركة كانت درساً في الصبر والتوكل على الله تعالى.

إن حادثة الهجرة تمد المسلمين بالعبر والعظات والدروس والتوجيهات، وقد شاء الله تعالى أن تكون بأسباب مألوفة للبشر، يتزود فيها للسفر، ويركب الناقة، ويستأجر الدليل، ولو شاء الله لحمله على البراق، ولكن لتقتدي به أمته في الصبر والتحمل، وفي العمل والتوكل.

إن حال المسلمين في العالم حري بالاستفادة من معاني الهجرة النبوية المباركة، بفهم أمر الدين والفصل بين الدين الحق وأهله وبين المنحرفين والمنفرين.

عباد الله، مهما طال أمد انتظار النصر فلا ينبغي أن نيئس من حصوله، فعلينا أن نزرع في نفوسنا الثقة بهذا الدين ونقاوم السلبية والانهزامية.

اللهم اجعلنا بصدق من أمة لا اله إلا الله، واحشرنا تحت راية لا اله إلا الله محمد رسول الله.

اللهم اجعل هذا العام الهجري بركة وخيراً يعم البلاد والعباد. آمين والحمد لله رب العالمين.

ذ. وزاني برداعي

عبرة

ذ. منير مغراوي

قال أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله تعالى، حدثنا إسماعيل بن هشام عن بعض أصحاب فتح الموصلي قال: "دخلت عليه يوما وقد مد كفيه يبكي حتى رأيت الدموع من بين أصابعه تنحدر، فدنوت منه لأنظر إليه، فإذا دموعه قد خالطها صفرة، فقلت: بالله يا فتح، بكيت الدم؟"

فقال: لولا أنك حلفتني بالله ﷻ ما أخبرتك، بكيت دما. فقلت: على ماذا بكيت الدموع؟ وعلى ماذا بكيت الدم؟ فقال: بكيت الدموع على تخلفي عن واجب حق الله، وبكيت الدم على الدموع خوفا أن يكون ما صحت لي الدموع. قال الرجل: فرأيت فتحا بعد موته في المنام، فقلت: ما صنع الله بك؟ فقال: غفر لي. فقلت: ما صنع بالدموع؟ فقال: قربني ربي ﷻ، وقال لي: يا فتح ما أردت بهذا كله، وعزتي لقد صعد إلي حافظاك أربعين سنة بصحيفة ما فيها خطيئة. (عيون الحكايات لأبي الفرج ابن الجوزي).

سبحان الله ما أزكاها من نفوس!! وما أرقها من قلوب!!

جمعت عملا صالحا وخوفا يفتت الأكباد. وهذا شأن السالك الصادق، اجتهاد في طاعة الله آناء الليل وأطراف النهار، وخوف ألا يقبل الله تعالى منهم، قال جل في علاه: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ (الذاريات: 17) باتوا لربهم قياما ثم استغفروه بالأسحار خشية أن يكون خالط قيامهم رياء أو حظ من حظوظ النفس، ولما سألت عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ (المؤمنون: 60) أهم الذين يشربون الخمر، ويسرقون؟ قال: لا، يا بنت الصديق، هم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون، وهم يخافون ألا يقبل منهم، أولئك يسارعون في الخيرات (رواه الترمذي).

فتأمل رحمك الله كيف كان حال القوم لتدرك عظم الخسارة، وتندم على ما فات من أعوام في الغفلة والبطالة، لعلك تشحذ الهمة وتشد العزم عسى أن تلحق بالقوم، فمن سار على الدرب وصل، ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (النساء: 100).

فاللهم اسلك بنا سبل الوصول إليك، ودلنا على أقرب الطرق للورود عليك، وارزقنا الصدق في طلب وجهك الكريم.آمين

من معالم المنهج الاجتهادي عند العلامة الدكتور محمد التاويل رحمه الله تعالى (1)

إن الله ﷻ قال: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾، وحفظ القرآن يقتضي حفظ الشريعة من التحريف والانتحال والتأويل الخاطئ، واقتضت حكمة الله تعالى أن يكون هذا الحفظ على أيادٍ آمنة، على أيادٍ علماء أجلاء لا يخلو منهم زمان ولا مكان، مصداقا لقول الرسول ﷺ في حق هذه الأمة: «إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»، وهكذا نجد في كل مكان علماء ذاع صيتهم في الأرجاء، وبلغت شهرتهم الآفاق، يعرفهم القاصي والداني، يدافعون وينافحون عن هذا الدين جزاهم الله أحسن الجزاء، وبالموازاة مع ذلك، هناك علماء آخرون يعملون في السر والخفاء لا يعرفهم إلا الخاصة من هذه الأمة؛ لأنهم لا يسعون وراء شهرة أو صيت أو حظ من الدنيا، يعملون ليلا ونهارا، وهبوا حياتهم لبيان شرع رب العالمين بكل ما أوتوه من قوة العلم ورصانة الفكر، يردون على كل من سولت له نفسه القدح أو النيل في جانب أو حكم من أحكام هذا الدين، وسلاحهم في ذلك القلم، وعدتهم وعتادهم العلم بالشريعة الإسلامية أحكاما وحِكما، ومن هؤلاء أو على رأسهم: العلامة الدكتور سيدي محمد بن قاسم التاويل فقيه فقهاء المشرق والمغرب رحمه الله تعالى وأجزل له العطاء.

ونحن في هذا المقال الموسوم بـ"المنهج الاجتهادي عند العلامة الدكتور محمد التاويل رحمه الله" حاولنا أن نستقصي بعضا من معالم منهجه مع الاستشهاد على ذلك ببعض آرائه، أما الإحاطة بمنهجه بشكل عام فأمر متعذر في هذا المقام، ولعلها تكون محاولة لتحريك همم من هم أحق بالبحث في هذا الموضوع ممن هم أهل لذلك.

وإننا نعني بمنهجه الاجتهادي: اجتهادَه -رحمه الله- في الاستنباط العام واجتهادَه في التنزيل أي تنزيل النص على الواقع، فالأول أي الاستنباط العام، فهم مجرد للنص دون مراعاة الزمان والمكان والأشخاص، والثاني أي الاجتهاد في التنزيل بخلاف ذلك، إذ يستحضر المجتهد في فهمه وتنزيله الزمان والمكان والأشخاص أو المجتمع.

من معالم المنهج الاجتهادي عند العلامة الدكتور سيدي محمد التاويل:

لقد سبق وأن أشرت إلى أن الإحاطة بالمنهج الاجتهادي عند الشيخ بشكل عام أمر متعذر في هذا المقام، لذا سأقتصر على بعض منها فقط، ومنها:

• المرجعية المعيارية لنصوص الشرع:

لقد كان الشيخ رحمه الله وقافا عند نصوص الشرع، فهي الحكم الفصل عنده، لا يحاول ليها لمجاراة الواقع أو لمداهنة أحد، ولا يحملها أكثر مما تطيق ليرضي اتجاها فكريا معينا، وذلك في كل كتاباته ويعلنها أحيانا صراحة في وجه المخالفين، ومن أمثلة ذلك:

قوله رحمه الله حين كلامه عن موضوع الزوجة العاطلة عن العمل هل لها الحق في مشاطرة زوجها للأموال المكتسبة خلال الزوجية، فبعد أن أوضح بالدليل والبرهان أن الزوجة التي لا تشارك في إنتاج المال بوجه من الوجوه، ولا تساهم في كسبه من قريب أو بعيد، ويقتصر دورها على شؤون البيت، لا يمكن اعتبارها شريكة للزوج في الأموال المستفادة بعد الزواج ثم قال: "هذه شريعة الله ودينه الذي بلغ رسوله لأمته وعمل به المسلمون والمسلمات من بعده راضين جميعا بحكم الله وقضائه، لا يجادلون فيه ولا يخرجون عنه، حتى ظهر في هذه الأيام من يحاول التشكيك في عدالة الإسلام، ويتهمه بظلم المرأة، وهضم حقها...".

وهو أيضا ما صرح به حين جزم بعدم مشاركة المرأة لمال زوجها في العمل غير الصناعي الذي شاركته فيه بالعمل، ردا على الإمام ابن عرضون، إذ قال: "... هذا كل ما أعطاه الله للزوجة من مال زوجها وهو ما أكدته السنة النبوية الشريفة ولو كان لها حق آخر غير هذه لبينه الله في كتابه ولبلغه الرسول إلى أمته..".

وقال أيضا في بيان الحكمة من جعل الطلاق في يد الزوج: "ورابعا وأخيرا، فإن هذا شرع الله ودينه الذي أنزله في كتابه وأكده على لسان رسوله ﷺ في قوله: «إنما الطلاق بيد من أخذ بالساق» ومن المعلوم أنه حيثما وجد شرع الله فثم مصلحته وحكمته".

ومن هذا نعلم قدسية النصوص الشرعية عند الشيخ رحمه الله، وحاكميتها المطلقة الصالحة لكل زمان ومكان، كما فهمها الصحابة بدون تعقيد ولا تعمق، ثم هو في كل ذلك يستحضر أنه يتكلم بلسان الشرع ويبين أحكامه، ويوقع عن الله كما أسمى ذلك ابن القيم رحمه الله، ويعتبر الوحدة القياسية هي ميزان الشرع، فما اعتبره الشرع فهو المعتبر، وما لم يلتفت إليه فهو ملغى من الاعتبار، ولو ظهر أنه يحقق مصلحة انطلاقا من حكم العقل، قال رحمه الله في معرض كلامه عن مفهوم العدل: "ليس من حق أي واحد أن يفسر العدل بما يشاء، ويطبقه كما يريد، أو يقيس المساواة بالمقاييس الشرعية حتى لا نقع فيما وقع فيه الفكر الشيوعي والاشتراكي، ولكن الذي أمر بالعدل وشرعه، وحرم الظلم على نفسه، وجعله محرما بين عباده هو الذي له الحق وحده في تفسير العدل الواجب في هذه النازلة وغيرها من النوازل".

• الشموليّة في المقارنة الفقهيّة:

للشيخ رحمه الله منهج موسوعي خاص في مقارنة القضايا الفقهية وخاصة الحجاجية منها التي هي محل اهتمام العلماء والمنظرين؛ فتجده ينطلق من النصوص الشرعية: القرآن والسنة، ثم أقوال الصحابة والأئمة المجتهدين، ويوظف اللغة كآلة أساسية لفهم تلك النصوص فهما مؤسسا على منهج علمي على غرار الأئمة المجتهدين الأولين، لينتقل بعد ذلك إلى بيان الحكمة أو الحِكم من تشريع الشرع، ومصالحِه المعتبرة المرجوة من هذا الحكم بحسب ما رجحه رحمه الله وتوصل إليه من خلال الخطوات المشار إليها، وهو بين هذا وذاك يستحضر قواعد أصولية وفقهية بطريقة تلقائية سلسة، ويوظفها توظيفا يطابق القصد الذي يصبو إلى تحقيقه، ليستخرج الحُكم والحِكم من ركام من الأقوال؛ ومن أمثلة ذلك:

• قضية قوامة الرجل على المرأة:

استدل رحمه الله على مشروعية القوامة بعدة نصوص قرآنية وحديثية، ثم وظف اللغة لتصور وتصوير مفهوم القوامة، وأسس فهمه لها بناء على ما فهمه من قَبله من الصحابة الأعلام كابن عباس رضي الله عنهما، والأئمة المجتهدين كالإمام القرطبي -رحمه الله- وبين حدودها ومجالاتها، لينتقل إلى بيان الحكمة من مشروعية القوامة أصلا، وفي الحكمة من إسنادها إلى الرجل وجعلها حقا له على الزوجة، وإقصاء المرأة وحرمانها منها على الرجل، وعدم إشراكها معه فيها.

• مسألة وجوب الزكاة:

إن المنهج الذي اعتمده -رحمه الله- في كتاباته فيما يتصل بالأحكام يضع اللبنات الأساس لقضية إعادة كتابة الفقه التي ينادي بها مختلف العلماء في الوقت الراهن، وهذا المنهج الذي اعتمده رحمه الله يجمع بين التأصيل بالنقل الصحيح والاستنباط السديد، ثم توظيف العقل السليم في بيان الحكم والمصالح، خلافا لمنهج المتأخرين من مختلف فقهاء الأمصار الذين غلبوا منهج الجمع والترجيح بين الأقوال، ولم يضعوا لبيان حكم الشارع ومقاصده من تلك الأحكام موضعا يكون بقدر أهميتها في اقتناع المكلف أيا كان معتقده بتلك الأحكام.

وإذا كانت القوامة ليست من أركان الدين وقواعد الإسلام وغيرها من المسائل التي تناولها الشيخ رحمه الله في مختلف كتاباته، فإن الزكاة المعلومة من الدين بالضرورة بخلاف ذلك، ومع ذلك تناولها الشيخ رحمه الله من مختلف الجوانب وهذا معلم من معالم التجديد: إذ بدأ -كما سبق أن أشرنا إلى منهجه العام- في بيان حكمها بمختلف الأدلة من كتاب وسنة وإجماع، لينتقل إلى بيان أهميتها والحكمة من مشروعيتها ومن جعلها للأصناف الثمانية خاصة كل صنف على حدة، بيانا شافيا كافيا، تتخلل كل ذلك قواعدُ أصولية وفقهية متنوعة من مثل قاعدة: المفرد المضاف إلى المعرفة يعم، والخاص مقدم على العام.

ذ: أنس الكبيري

إثارة الأرض وعمارتها في ضوء المنهج الحضاري الإسلامي

د. أحمد زايد

تقوم الحضارة على ثلاثية متكاملة هي (الإنسان – الأشياء- المنهج)، فـ "الإنسان بثلاثيته: الجسد، الروح، العقل" هو ركن العملية الحضارية ومحورها الأول حيث هو مكلف، سخر الله تعالى له الكون، وتحدث في كتابه عن هذا التسخير، ليلفت نظر هذا المكلف إلى الركن الثاني المبثوث في الكون وهو "الأشياء" في سماء الله وأرضه ليقوم بإثارة الأرض والنظر في الكون ليحقق العمارة المرجوة، ولا يكون ذلك تاما ولا راشدا إلا بـ "منهاج صحيح".

وإذا كانت مهمة الإنسان في هذه الدنيا تنحصر في عبادة الله وعمارة الكون، فهي مهمة لا تقوم إلا بجناحين: العبادة والعمارة، وعندما يسعى المسلم لتحقيق تلك المهمة لابد أن يدرك أن الله تعالى فصَّل له كيفية التعبد، إذ ليس هذا مجال اجتهاده البشري، وترك له تفصيل كيف يُعمِّر في إطار جملة من القواعد الكلية والمسالك الجملية، منها:

– ضرورة النظر في الكون نظرة عميقة لا ساذجة، وسذاجتها أن تقف عن قول سبحان الله، وعمقها أن يرى الناظر مكنون خيرات الله المسخرة للإنسان في كل شيء من الكون.

– التوسل بإثارة الأرض إلى مكنوناتها: وهي تقليبها لا للزرع فقط وإنما لاستخراج كافة مكنوناتها التي تكتشف يوما بعد يوم.

– تسخير المستخرج من تلك المكنونات في خدمة المهمة (العبادة والعمارة).

– حماية المنجزات الحاصلة بما سبق لخدمة الرسالة، والاستمرار في العبادة، وصولا إلى إقامة حضارة ربانية عالمية.

﴿وأثاروا الأرض وعمروها﴾:

لقد تحدث القرآن عن أمم أقامت حضاراة وعُمِّروا في الأرض طويلا، وكانوا أُولِي قوة وأولي بأس شديد، وقد وصلوا إلى هذه الحالة الحضارية بعملين:

﴿أثاروا الأرض وعمروها﴾، يقول الطبري: "وَأَثَارُوا الأَرْضَ" واستخرجوا الأرض، وحرثوها وعمروها أكثر مما عمر هؤلاء".

ومن هؤلاء قوم سبأ حيث امتلكوا قوة حضارية، عبر عنها الجنود بقولهم ﴿نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد﴾ يقول ابن عاشور: "والقوة: حالة بها يقاوم صاحبها ما يوجب انخرامه، فمن ذلك قوة البدن، وقوة الخشب، وتستعار القوة لما به تُدفع العادية وتستقيم الحالة؛ فهي مجموع صفات يكون بها بقاء الشيء على أكمل أحواله كما في قوله ﷻ: ﴿نحن أولوا قوة﴾ (النمل: 33)، فقوة الأمة مجموع ما به تدفع العوادي عن كيانها وتستبقي صلاح أحوالها من عُدد حربيَّة وأموال وأبناء وأزواج....

ويعلق على قوله تعالى: ﴿أثاروا الأرض﴾ بقوله في معنى الإثارة: "وهي تحريك أجزاء الشيء، فالإثارة: رفع الشيء المستقر وقلْبُه بعد استقراره... وأطلقت الإثارة هنا على قلب تراب الأرض بجعل ما كان باطناً ظاهراً وهو الحرث... ويجوز أن يكون ﴿أثاروا﴾ هنا تمثيلاً لحال شدة تصرفهم في الأرض وتغلبهم على من سواهم بحال من يثير ساكناً ويهيجه، ومنه أطلقت الثورة على الخروج عن الجماعة. وهذا الاحتمال أنسب للمقصود الذي هو وصف الأمم بالقوة والمقدرة من احتمال أن تكون الإثارة بمعنى حرث الأرض لأنه يدخل في العمارة... ومعنى عمارة الأرض: جعلها عامرة غير خلاء وذلك بالبناء والغرس والزرع".

إن الأمم غير الإسلامية تثير الأرض اليوم وتعمرها، وتتمكن من مفاصل الحياة ومراكز القوى والتأثير فيها في حين تقف أمتنا بعيدا وكأنها في حالة سكر وغياب عقل، حتى غدت تستورد غذاءها ودواءها وسلاحها من عدوها، وهذا لا يليق بأمة نادها ربها بكمِّ هائل من التوجيهات الحضارية والتي أبرزها "إثارة الأرض وعمارتها".

القوة علم والعلم قوة:

قالوا إن العلم قوة والقوة علم، وقد فهم أعداؤنا ذلك وقرروا أن يحجبوا عن المسلمين العلوم والتقنيات والمعارف المؤثرة، ومن يقرأ وثيقة هنري كامبل رئيس وزراء بريطانيا 1907 يجد مخططا ثلاثي الأبعاد أحد أجنحته "حجب التكنولوجيا عن المسلمين والعرب"، باحتكار المعرفة وأسرار العلوم والتقنيات وعدم تمكينهم منها، وبالتقصير في تحصيل التكنوجيا والمعلومات فقدت الأمة مفاتيح الإثارة والاستخراج والعمارة، حتى إن بلدا كمصر مثلا بها قريب من ستة ملايين مريض بالسكر، وتستورد دواءه من الدانمارك، وإذا ما قامت بعض الصحف الدانماركية برسوم مسيئة لرسولنا الكريم ﷺ قلنا في حالة ثورتنا وغضبنا يجب مقاطعة البضائع الدانماركية، ونسينا أننا مهددون بقطع الدواء عن هذه الملايين المريضة، هذا نموذج فقط يمكن القياس عليه في كل المجالات العسكرية والصحية والغذائية والتكنولوجية في كافة دولنا الإسلامية.

واجبنا:

من الواجب الشرعي والوطني والإنساني توجيه الأبناء توجيها ليسهموا في صناعة التغيير والإصلاح والبناء الحضاري، وهؤلاء طبقتان:

الأولى: طبقة العامة. والثانية: طبقة الخاصة والنخبة.

أما العامة فيجب أن نوجههم إلى أمرين:

– تعبيد سعيهم لله تعالى بحيث تكون نواياهم في ذلك السعي الدنيوي، لله تعالى، ويكون ذلك دافعا ليتقنوا أعمالهم وينضبطوا في أوقاتهم ومواعيدهم، ويبدعوا في وظائفهم وحرفهم وصنائعهم، ويقصدوا نفع الناس بتلك الأعمال، ولا يفصلوا ولو شعوريا بين الشعائر التعبدية والأعمال الدنيوية فالكل في سبيل الله حسب تقرير الإسلام.

– تهيئة أناس من بينهم ليقوموا بفروض الكفايات، وهي الأعمال والصنائع والعلوم والتخصصات المتنوعة التي تقوم عليها الحياة، والتي يمكن أن تسهم في انعتاقنا من ربقة الاستعباد الغربي في مجالات الحياة الحيوية التي أشرت إليها.

وأما الخاصة فعليهم واجبان كذلك:

– صناعة وعي العامة بتقديم ثقافة إسلامية تستنهض هممهم بعيدا عن تلك المهاترات الحزبية أو الفكرية التي تزيد في ضعف الأمة ويأسها.

– الخروج من دائرة التفكير في مصلحة الذات إلى دوائر أكبر حيث مصلحة الأسرة، والمجتمع والوطن بل والبشرية، وحينئذ يعظم السعي ويتضاعف الجهد في تحقيق فروض الكفايات التي بها قيام الحياة.

إن الحياة الإسلامية لا تقوم بالشعائر وحدها، وإنما امتلاك أسباب الحياة ومفاصلها المؤثرة وقوتها الفاعلة هي الحياة الإسلامية الحقيقية.

الحضارات سنن وقوانين

إن حركة الأمم والحضارات، قياما وازدهارا وانحدارا، انتشارا وانحصارا، تقدما وتخلفا، فعلا وانفعالا وتفاعلا، لا يتم في التاريخ الإنساني إلا بضوابط معلومة وقوانين ثابتة ومطردة، وسنن جارية لا تتخلف، ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ (فاطر: 43)، ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ (الأحزاب: 62)، وهي بهذه الصفات والمعالم أصناف ومستويات، تحكم حركة الأفراد والجماعات، والأمم والحضارات، وتجري أحكامها في كل القطاعات الاجتماعية وكل المجالات. وتتشابك هذه المستويات والقطاعات في نسيج كلي واحد، تتفاعل أجزاؤه وتتدافع كما تتدافع إطاراته الكبرى وتتنازع على القيادة والسيادة.

إن التحرك الحضاري للأمم رهين بشروط لا يتم إلا بها، وقائم على قواعد لا يقوم إلا عليها، ومحكوم بغايات لا يسير إلا وفقها؛ شروط مؤثرة في حركة الحضارة من مهدها إلى لحدها، ومن ميلادها إلى أفولها، وقواعد ومعايير تحكم تصورها وتصرفها في الكليات كما في الجزئيات، وفي الأصول كما في الفروع، في الثوابت والمتغيرات، في المحكمات كما في الظنيات. وإن حضارة أي أمة لابد أن تحركها غايات ومقاصد تشكل روحها الأصيل ومحركها الذي يمنحها الوجود والحلول في كل المجالات والحقول، ويحميها من الرحيل أو الترحيل. وإن الأمم لا تتميز بمظاهرها إلا لتمايز جواهرها وروح فلسفاتها التي تحدد تصورها للخالق والخلائق، وتؤطر كل ما تنجزه من أفعال ومناهج وطرائق، وما تقيمه من أشكال الصلات والعلائق.

الحضارات لا سبيل لها إلى الوجود والشهود إلا يوم يحملها أبناؤها في أصلابهم وفي أحلامهم ، ويخلصون لها في أعمالهم ، ويوم يمثلونها تمثيل النطفة لصاحبها ، ويوم يصوغون علمهم وعملهم وفقها لا وفق غيرها . وإن كل حضارة آمن أبناؤها بغير مبادئها ، وناقضت أعمالهم توجيهاتها إلا كان ذاك إيذانا بفنائها

إن تاريخ البشرية لينطق شاهدا أن الأمم قديما وحديثا لم تعرف إلا جنسين من الحضارة؛ جنس قام على أساس الدين، صحيح أو غير صحيح، وجنس آخر قام على أساس مادي دنيوي، وإن حركة التدافع بين الأمم وسنة التداول الحضاري . على تباين وسائلها، واختلاف مظاهرها، وتباعد أطوارها وتنافي مبادئها ومصادرها. لم تغب عنها هذه الحقيقة، ولم يند شيء عن قوانينها. فلم يكن التدافع إلا بين الديني واللا ديني، وبين الدين الصحيح والدين المُحرَّف. فالدين جوهر التاريخ ومحركه، وما الأشكال الأخرى إلا مظاهر وتجليات، ولا تنتقل هذه المظاهر إلى مركز الفعل والتوجيه إلا عندما تتحول إلى عقيدة، فالعامل الاقتصادي أو السياسي أو الثقافي أو العرقي... كلها محكومة بالمعتقدات، موجهة بها، ولا تصير هي الفاعلة إلا عندما تصير عقيدة ودينا عند أصحابها. ولا أدل على ذلك أن أغلب بناة الحضارات ودعاة تجديدها كانوا أنبياء ورسلا أو أتباعهم، أو زعماء دينيين، أو أرباب معتقدات دينية، أو أصحاب أفكار ومذاهب إصلاحية تشربتها قلوبهم واتبعتهم فيها أممهم وشعوبهم. ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (النحل: 36).

والحضارات لا سبيل لها إلى الوجود والشهود إلا يوم يحملها أبناؤها في أصلابهم وفي أحلامهم، ويخلصون لها في أعمالهم، ويوم يمثلونها تمثيل النطفة لصاحبها، ويوم يصوغون علمهم وعملهم وفقها لا وفق غيرها. وإن كل حضارة آمن أبناؤها بغير مبادئها، وناقضت أعمالهم توجيهاتها إلا كان ذاك إيذانا بفنائها؛ إلا ما كان من قبيل الاقتراض الباني والتفاعل الإيجابي غير الناقض للمقومات ولا الهادم للمرتكزات.

وإن الحضارات الحقة في تاريخ البشرية كتبت بدماء أخيار الناس وصالحيهم، ولم يسترخص المخلصون في سبيلها أموالهم وأنفسهم، والحضارات الزائفة كتبت على دماء الأتقياء والأبرياء، ولم يتورع زعماؤها عن قلب الحقائق إلى أباطيل، ولم يتوانوا عن تصوير الباطل في صورة الحق، حتى يخفى على ذوي الألباب ما فيها من الخطأ والضلال ومجانبة الحق والصواب، قال تعالى عن فرعون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ (غافر: 26).

وإن الحضارة لا تبلغ مبلغ الرشد الحقيقي والنفع العميم إلا يوم تكون ربانية المصدر إنسانية الإنجاز والمقصد، تقيم تصورها على الإيمان بالله تعالى، وتقيم عملها على العدل بين الناس كل الناس، لا تمييز بينهم لا في الألوان ولا في الأجناس، إلا على أساس التقوى لله رب العالمين، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الحديد: 25). ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: 13).

واختصارا للقول فإن الحضارة مظهر من مظاهر الفعل الإنساني الفردي والجمعي، المادي واللامادي ممتد زمانا ومكانا في الأرض، وموجه بقوانين ربانية، ومحكوم بسنن إلهية على قدر العمل بها والوفاء بشروطها يكون العمران الصحيح، وعلى قدر الانحراف عنها يكون الفساد والإفساد.

الطيب بن المختار الوزاني

معالم في الطريق إلى فهم القرآن الكريم اليوم*

أ.د. الشاهد البوشيخي

العنوان الذي اخترت أن أتحدث إليكم فيه هو: "معالم في الطريق إلى فهم القرآن الكريم اليوم". والمقصود بالعنوان واضح، فالمعالم هنا هي نقط جزئية محددة تتصل بكل أمر من هذه الأمور؛ لكن هذا لا يمكن في مثل هذا الزمان ولا هذا المكان؛ ولكنها مجرد تنبؤات كبيرة أو معالم كبرى ونحن نتجه إلى فهم جيد لهذا الكتاب العزيز، هي معالم في الطريق إلى ذلك، بمعنى أن الانتقال من مَعْلَم إلى مَعْلَم واستجماع هذه المعالم بصفة عامة يمكن -بإذن الله ﷻ- أن يوصل السائر إلى المراد، وقلت "اليوم" لأن بُعْد الزمان وبُعْد الإنسان في هذا الزمان عما كان، يجعل الحمل ثقيلا على من يريد أن يعود إلى الأصل ليفهمه وفق دلالة الأصل، ووفق زمن لغة التنزل؛ لأنه إذا فهم بأي دلالة متأخرة ما فهم قط، وهذا موجود وكثير، في زماننا وقبل زماننا، وليس الأمر بالهين لكي يصل الإنسان إلى المقصود؛ لكن كما يقال: كل من سار على الدرب وصل.

تحت هذا العنوان مجموعة نقاط:

أولا: مقدمات ممهدات.

ثانيا: هناك خمسة معالم وهي:

المعلم الأول: معلم العلم بلسان القرآن.

المعلم الثاني: معلم العلم بمقام مقال القرآن.

المعلم الثالث: معلم العلم بمفاهيم مصطلحات القرآن.

المعلم الرابع: معلم الإيمان بما جاء به القرآن.

المعلم الخامس: معلم اتباع هدى القرآن.

وأخيرا خاتمة.

فما المقصود بكل مَعْلم؟ وكيف يكون طريقا إلى فهم القرآن الكريم اليوم؟

أولا: مقدمات ممهدات:

أحب أن أتناول فيها أمرا لخصته في مقدمات يبنى عليها ما بعده من المعالم، وهي كالآتي:

المقدمة الأولى: فساد الحال يدل على فساد العمل:

إذا رأينا فساد حال شخص، أو فساد حال أسرة، أو فساد حال مجتمع، أو فساد حال أمة، رأينا فساد الأحوال عامة، فذلك يدل قطعا على فساد الأعمال، فلا تحتاج إلى جهد كبير تضيعه لتبحث في الجزئيات ﴿وما أصابكم من مصيبة بما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾، ﴿أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم﴾، ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾.

المقدمة الثانية: فساد العمل يدل على فساد الفهم، للعلاقة التلازمية الموجودة بين الفكر والعمل:

إذ لا يكمن أن ينتج فكر فاسد عملا صالحا، ولا يمكن أن يدل عمل فاسد على فكر صحيح، فبينهما تلازم تام، إذ فساد العمل يدل على فساد الفهم، ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾. غيّر النعمة: أي نقلها من حال الصلاح إلى حال الفساد، ولا ينقل الله تعالى قوما من حال الصلاح إلى حال الفساد حتى يحدثوا هم في قلوبهم تغييرا هو الأصل في هذا، والتغيير في القرآن كله دائما سلبي وفعل شيطاني: ﴿ولآمرنهم فليغيرن خلق الله﴾. وإن الناس يفهمون الآيتين وكثير من أهل العلم وكثير من أئمة العلم يفهمون الفهم غير الصحيح للفظ التغيير في القرآن الكريم، فهو مضاد ضدية كاملة للإصلاح، والإصلاح نقل الشيء من الفساد إلى الصلاح، والتغيير نقله من الصلاح إلى الفساد، ولا يزال في دارجتنا وأنا الآن وكأني أستمع في قبيلة من القبائل أن امرأة بدوية تقول لولدها بصوت مرتفع فَعَلَ خطأً ما: "ياك آ المغير".

فساد العمل يدل على فساد الفهم، للعلاقة التلازمية الموجودة بين الفكر والعمل؛ إذ لا يكمن أن ينتج فكر فاسد عملا صالحا، ولا يمكن أن يدل عمل فاسد على فكر صحيح

المقدمة الثالثة: فساد الفهم يدل على فساد المنهج الذي به حصل ذلك الفهم:

فالفهم أيضا مجرد نتيجة توصل إليه وسيلة هي المنهج: ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تاويله﴾، وحتى ابتغاء التاويل مستحيل فهو ابتغاء ما لا يجوز؛ لأن التاويل في القرآن الكريم مداره على ما يؤول إليه الأمر في الواقع المستقبلي، وذلك لا يعلمه إلا الله ﷻ وحده، ﴿وما يعلم تاويله إلا الله﴾، والوقوف هنا واجب، وعدم الوقوف شرك. ﴿والراسخون في العلم﴾ ليس لهم إلا أن يقولوا آمنا به -لا المحكم لا المتشابه- ﴿كل من عند ربنا﴾ ليس لهم غير هذا. فالأصل هنا: لا أحد يعلم التاويل إلا الله جل وعلا، ﴿يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ ومنه تأويل الأحلام لا زيادة، يعني ما الذي يحدث بعد يوم يخرج الحلم في الواقع، ﴿هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا﴾.

ولذلك فضبط المنهج يصير عليه المدار، إذ به يتم الوصول إلى ما به يتم الوصول إلى ما به يتم الوصول إلى ما به يتم الوصول إلى ما يرضي الله والرسول.

أمر اللسان العربي هو أمر ديني وليس أمرا طينيا، وضبطه وإتقانه واجب في عنق أي مسلم يشهد ألا إله إلا اللّه وأن محمدا رسول اللّه، ليس له أن يقدم عليه أي لسان كائنا من كان.

ثانيا: معالم في الطريق إلى فهم القرآن الكريم اليوم:

المعلم الأول: معلم العلم بلسان القرآن:

العلم بلسان القرآن الكريم -بكلمات موجزة- يمكن تفريعه إلى علم البيان والتبيُّن، وعلم الصحة والجمال، وعلم المبنى والمعنى.

فمدار علم البيان والتبين أساسا على النصوص التي فيها بيان، والبيان محمود في اللسان العربي، والله تعالى خلق الإنسان علمه البيان، والبيان عند الجاحظ صاحب كتاب "البيان والتبين" هو المقدار، وما فضل عن المقدار هو الخطل، وما نقص عن المقدار هو العي، فهو المنزلة الوسطى المحمودة بين خطيئتين، بين شيئين قبيحين، بين العي والخطل، هذا البيان له إطلاقات الذي يعنينا منها هو هذه النصوص التي تستحق صفة البيان، كانت شعرية أو نثرية أو غير ذلك، هذه النصوص منها يكتسب اللسان بجميع ما يحتاجه هذا اللسان بيانا وتبينا، صحة وجمالا، مباني ومعاني، كل ذلك يأتي من النصوص، فليس النحو والصرف... وقل ما شئت من علوم الآلة ليست هي التي توصل لاكتساب هذه المهارة، خطأ في طرق التدريس؛ لأن أهل الجاهلية وصدر الإسلام لم يكن عندهم لا نحو ولا صرف ولا...؛ ولكي تكتسب أي لسان تحتاج إلى أن تصحب أصحاب ذلك اللسان أو الكلام الذي سمع أو كتب أو.. بذلك اللسان، لذلك فالطفل ببساطة يكتسب لغة أمه كيفما كانت، وبعد ذلك يكتسب مستوياتها، ويذهب شخص مثلا ترك المحراث هنا وذهب إلى ألمانيا، لا يعرف لا كيف يكتب ولا كيف يحسب، وعاش هناك سنة أو سنتين، فعاد ينطق الألمانية ما شاء الله عز وجل، وهكذا إذا ذهب إلى الصين أو إلى اليابان أو إلى أي نقطة يكتسب لغتها دون أن يقرأ لا نحوا لتلك اللغة ولا صرفها ولا أي شيء؛ وإنما فقط يسمع يسجل يحلل وينتج، فهذا الأصل للأسف لم يعد موجودا وكان في القديم هو الأساس في اكتساب اللغة، كان الناس يختارون، وكتاب البيان للجاحظ مختارات أدبية جميلة في نظر الجاحظ وغير الجاحظ بصفة عامة، ولذلك جعلته الأمة كتابا من الكتب الأربعة، فتلك النصوص الموجودة هناك هي على مستوى خاص من البيان العربي، فاكتساب العلم باللغة عنده هذه الصورة البسيطة التي هي في مكنة الجميع، والقرآن نفسه أكبر وسائلها، وحديث رسول الله ﷺ من وسائلها، والشعر العربي الفصيح من وسائلها، والنثر العربي الفصيح من وسائلها، فالعلوم الواصفة دائما متأخرة ولا يتوقف عليها اكتساب الأصل.

والشعراء يمكنهم أن يكونوا شعراء في قمة الشاعرية بكل ما تستلزم دون أن يعرفوا عروضا ولا أي شيء، وهكذا كان الأمر أولا وهكذا هو أخيرا متى ذقنا الأمر، فالقرآن الكريم فيه بلغ اللسان العربي كماله، هذا الكمال من كل جوانب الكمال هو موجود هناك، لكي يذاق يحتاج إلى أن يكون لهذا الذي يدخل إليه رصيد من الكلام العربي الذي يرجع إلى فترة التنزل، ولن يفيده كلام المتأخرين، فليس بتلك اللغة نزل القرآن وليس بذلك اللسان نزل القرآن، اليوم توجد ظواهر لغوية لسانية بسبب الخطأ لا بسبب التطوير الاجتهادي أبدا. قلت فهذه النصوص جانب الصحة والجمال فيها يمكن ضبطه من الأصل إذا لم يعرف؛ ولكن في زماننا وقد تراكم ما تراكم في كل علم من العلوم، ومنها علوم اللغة علوم اللسان، لا بأس أن يضبط علوم الآلة، لا التي تضبط الصحة من نحو ومن صرف وغير ذلك، ولا التي تضبط الجمال كالجانب البلاغي على سبيل المثال البلاغة ومستوياتها إلى غير ذلك.

وكذلك أيضا ما يتعلق -وهذا بالنسبة للقرآن ضروري كما سبقت الإشارة- بمسألة المبنى والمعنى، يعني: المعجم بأشكاله المختلفة المفردات والتركيبات والدلالات التي تستفاد من المفردات ومن المركبات، في مختلف السياقات، هذا أيضا وهو ينتج من الأول ويعين عليه الثاني؛ ينتج من الأول الذي أشرت إليه سابقا من علم البيان والتبين، ويعين عليه الثاني الذي هو علم الصحة والجمال، ولكن المهم في مسألة فهم القرآن هو أن يصحب الإنسان ويتقن هذه الأمور كما كانت في زمن التنزل، وأؤكد على هذا كثيرا، ولذلك اهتم العلماء واهتم القدماء بمختلف أشكالهم بالمعاجم العربية بصفة عامة.

يرى النظر الأوربي على سبيل المثال النظر الغربي، الذي ليس له دين بمفهوم الدين عندنا وأنتم تعلمون أنه لا يوجد إلا دين واحد مذ آدم عليه السلام حتى تقوم الساعة، لا يوجد دينان على الكرة الأرضية، فدين الله تعالى كما في الآية ﴿أفغير دين الله تبغون﴾ أو ﴿إن الدين

←

عند الله الإسلام»، فلا يوجد غير الإسلام فكل الأنبياء وكل الرسل عليهم الصلاة والسلام مسلمون، وكل أتباعهم مسلمون، ولا يوجد شيء آخر ولكن الناس رفعوا رايات لشهوات، ولا تزال هذه الشهوات تقتاد الناس إلى البلايا. هذا الجانب الذي هو كما قلت أن العلماء الأقدمون اهتموا بالشعر الجاهلي وبكلام أهل الجاهلية لفهم القرآن، وأيضا معاجمنا لم تهتم كثيرا بالدلالات المتأخرة، واهتمت بدلالات عصر التنزل، بقوة أكثر من سواها التي تقدمت قليلا أو صحبت أو تأخرت قليلا، ولذلك ضبطوا مسألة عصر الاحتجاج بمنتصف القرن الثاني الهجري تقريبا، إلا في بعض القبائل لظروف خاصة؛ ولكن بصفة عامة فالشعر العربي المحتج به لا يجاوز وفاة ذي الرمة 145هـ. في هذا الإطار ظل المثال وظل الشاهد يستمر في المعاجم العربية بذلك لا بسواه؛ لأن ما حدث بعد لا يجدي كثيرا في فهم القرآن الكريم، قد يجدي في فهم أمور في زمانه، وما نظر الناس إلى ذلك كذلك، ما نظروا إلى هذه الأمور العوارض كهذا الشيء الثابت الذي هو عمود البشرية.

فإذن أمر اللسان العربي هو أمر ديني وليس أمرا طينيا، وضبطه وإتقانه واجب في عنق أي مسلم يشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ليس له أن يقدم عليه أي لسان كائنا من كان، نحن اقتربنا من الرحيل ومثلي اقترب من الرحيل، وأصدقكم القول وألخص لكم سبعين سنة وأقول: آثمون هؤلاء المسلمون الذين يجعلون لدولهم ألسنة أخرى غير اللسان العربي، أي لسان القرآن، وهم يقولون إنهم مسلمون، فهم آثمون نتيجة ظروف تاريخية وليس الآن؛ ولكن نتيجة ظروف شتتت الأمة، وكل نادى بطينه الذي هو فيه، فجاءت الملوية، وجاءت الأردية، وجاءت التركية، وجاءت.. كل هذه يمكن لها أن تعيش عيشا عاديا ولها ذلك؛ ولكن لا نتحدث عن اللغة الرسمية؛ لأن الله تبارك وتعالى أراد لهذه الأمة أن تكون شيئا واحدا لا أشياء، فهي أمة ولا يمكن أن يتصور فيها أنها أمة إلا إذا أمَّت شيئا واحدا، وأمَّها كائن واحد، فمفهوم الأمة يقتضي الدوران على محور ويقتضي الانضمام التام إلى ذلك المحور، ولو كانت أمَّة النمل!! فنحن كما قلت في بداية الكلام بعدنا جدا ولن يستطيع الرؤيا منْ لم يتخلص من مناخ الدرس التاريخي، فمثلا عندما تجلس في مقهى فيها مدخنون بكثرة، فما الذي يحدث ولو لم تكن مدخنا في حياتك قط؟ لا بد أن تأخذ حظك من الدخان؛ لأن الجو ليس فيه إلا ذلك، ولذلك جاء في الحديث: «يأتي زمان على أمتي من لم يأكل الربا نال من غباره»؛ لأنه يصعب الاحتراز منه، فكذلك الأمر بهذا الشكل، فالذي لم يستطع أن يدخل في مجاهدات ورياضات ليتخلص من هذه الآفات، ويكتسب عينا بدون نظارات، أي: عينا طبيعية لا حمراء ولا زرقاء ولا أي لون، لا يستطيع الرؤيا العادية المطلوبة، فإذن هذا المعلم الذي هو إتقان لسان القرآن الكريم والتمكن منه لأننا بصدد التحدث عن الأمور بصفة الكمال، من أراد أن يفهم القرآن فهما دقيقا ويذوقه ليكتشف أسراره، ويستطيع أن يستنبط الهدى المنهاجي في التفكير وفي التعبير وفي التدبير، وتصريف الأمور في مختلف أنواع مجالات الحياة؛ لا يستطيع ذلك، لا لسبب وإنما فقط لأنه يحتاج إلى هذه الأداة، وأن يكون قد تمكن منها بهذا الشكل الذي أتحدث عنه، فلو تمكن منها بطريق اللسانيات المعاصرة لا يجديه ذلك شيئا، ولا يعني هذا أن اللسانيات المعاصرة ليست بشيء؛ بل هي شيء مهم، ولكن في ظروفها وبالنسبة لزمانها ولقضاياها الحالية؛ أما بالنسبة للقرآن الكريم فإنه لا بد من التمكن من اللغة التي بها نطق القرآن، وبها تكلم القرآن، وبها -لا بغيرها- نزل القرآن، ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين﴾، فمقتضيات هذا لا حد لها، لذلك ينبغي للأمة أن تراجع التعليم وتراجع أولويات التعليم، وتراجع أولويات الحياة بصفة عامة؛ لكي لا نجرم إجراما ضخما في حق الأجيال، لنخفف قليلا من أحمال الآخرة.

بالنسبة للقرآن الكريم فإنه لا بد من التمكن من اللغة التي بها نطق القرآن، وبها تكلم القرآن، وبها -لا بغيرها- نزل القرآن، ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين﴾

المعلم الثاني: معلم العلم بمقام مقال القرآن الكريم:

هاهنا المدار على: من المخاطِب؟ ومن المخاطَب؟ وما ظرف الخطاب مكانا وزمانا وإنسانا؟

- المخاطِب: من هو؟ لا بد من الانطلاق من -وأنت مضطر إلى الانطلاق منه وإلا فلن تستطيع أن تفسر نصوصا كثيرة بغير أن تلتزم بهذا- أن الذي يتكلم هو الله جل جلاله الذي له ملك السماوات والأرض، ونحن جزء من هذا الملك، الذي بيده الأمر كله وإليه يرجع الأمر كله، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ما يتعلق بالله جل جلاله، وهو نحو ثلث القرآن، إشارة إلى أن سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن لدورانها على قضية واحدة، هي: من هو الله سبحانه وتعالى؟ فالقرآن مليء بالآيات المعرفة بالله تعالى، إما متحدثة عن أسمائه، أو عن أفعاله وآياته في ملكه... ورابطة لكل شيء به.

من أين يأتي الإشكال؟ يأتي من غيبة الإنسان عن القرآن الكريم، وأنتم تعلمون أن تعليمنا في أربعة أحزاب، وتعطى للطفل الصغير قبل البلوغ، مع العلم أن الخطاب الحقيقي هو للبالغ ذكرا كان أو أنثى، هو الذي تم نضجه ليعقل عن الله العليم الحكيم، ويفهم عن الله جل جلاله، وذلك في الطريق أي تمهيدات تدخل في المحافظة على الفطرة «ما من مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» (أخرجه الشيخان). وستة وخمسون حزبا كأنها لم تنزل على رسول الله نهائيا ولا علاقة لها بنا، فكيف؟ هل هي عبث؟ إذا كانت الأربعة تكفينا فلماذا الباقي؟ فلذلك إن صحب الإنسان هذا الكتاب، وجعله الكتاب لأنه هو الكتاب، وما سواه ليس بكتاب ﴿ألم ذلك الكتاب﴾. هذا الكتاب جمع فيه خلاصة ما مضى وما يلزم للبشرية فيما هو آت، وبني على أساس أن لا نبي بعد، وإنما هناك الأمة تجتهد عن طريق المجتهدين من الأمة فقط. فلا نبي بعد، ولا رسول بعد، ولذلك يأتي شخص ويضيع لهم أوقاتهم ويقول لهم: نتكلم عن المنهج البنيوي في فهم القرآن الكريم، دراسة بنيوية، ويعزل النص عن قائله، فلن يفهم ولن يدري، وإنما هو تضييع للوقت.

- المخاطَب؟ أيضا لا بد أن يتعرف على المخاطب في ذلك الوقت، وأن يتعرف على جيل الصحابة في ذلك الظرف في ذلك المحيط، ولذلك قلت: ما ظرف الخطاب مكانا؟ لأن هذا المكان كان مجرد واد غير ذي زرع، يختاره الله تعالى لإنزال خير ما عنده من هداية للبشر، فتلك النقطة لا تصلح لأن يذهب إليها الإنسان، لولا هذا الذي اختاره الله ﷻ وأنزله سبحانه، ولكن الواضح أن عبد الله أو أمة الله لا يمكن أن تصل إلى هناك وترغب في أخذ شيء؛ بل يجب أن تتنازل عن كل شيء حتى لا يبقى إلا ما على الجسم، والرجال ليس عندهم إلا الكفن، أي ثوب الإحرام، والذي وصل يتعجب كيف أن الحياة موجودة في ذلك المكان، لولا أن الله جل وعلا أخرج فيه زمزم بقدرته سبحانه ﷻ، فأقول ظرف الخطاب مكانا وزمانا وإنسانا ضروري لفهم القرآن، وهاهنا لا بأس أن أشير إلى شيء سمي بالسيرة الشاملة أو السيرة السنة، القصد هو أن الجهد الذي كان في ثلاث وعشرين سنة، فنزول القرآن كان في هذه الفترة وتنزيله على ذلك المكان وذلك الإنسان وفي ذلك الزمان، وكل ما حدث نتيجة هذا النزول، وإحلال له في الواقع من الصفر يوم لم يكن ما نزل شيء إلى أن ظهرت الأمة، ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾، وبدأ الانطلاق في العالم بعد منذ تلك النقطة، وانتهت وظيفة رسول الله ﷺ، ﴿إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا﴾ فاستعد للرحيل ﴿فسبح بحمد ربك واستغفره﴾. هذه الفترة لم توثق لدى الأمة حتى الساعة بالصورة التي تكون أمامك كالمرآة، كل آية في موضعها، في علاقتها بالإنسان الذي تتصل به، وبالمكان وبالزمان، وكذلك كل حديث، وكذلك كل كلام جاء بعد يمكن أن يلحق بالحديث من كلام الصحابة رضي الله عنهم، كل ذلك يغربل أولا لنحصل على النص الوثيقة، ثم بعد ذلك يربط بزمانه ومكانه وإنسانه في نسق تاريخي منذ ﴿اقرأ بسم ربك﴾ إلى رحيل رسول الله ﷺ؛ فنحصل على إدخال القرآن وجميع كتب الحديث بكاملها بعد أن تمر بالغربلة طبعا، وأيضا ما يمكن إلحاقه بذلك، وبمجموع ذلك سنحصل على سيرة هي عبارة عن منهاج لإحلال هذا القرآن في الواقع جزءا جزءا، حتى اكتمل الأمر، فعندما اكتمل الأمر أي النزول اكتمل الظهور، فينزل قسط فيصير واقعا، ثم ينزل قسط آخر فيصير واقعا، وهكذا عندما انتهى النزول كان قد تم الكمال للدين نصا، وكمل من حيث الصورة التطبيقية النموذجية أيضا، فهذا الأمر يوم يحدث وسيحدث إن شاء الله ﷻ سيعين كثيرا جدا على هذا الأمر الذي هو ظرف الخطاب، وسيحدث نتيجة جهود طبعا لجيش من الباحثين والعلماء.

إن الإدراك الجزئي والتجزيئي للرؤية القرآنية مفسد لها من الناحية العملية، ومفسد للإنسان الذي بني على أساسها، فلذلك لنحصل على ما سبق تسميته بالفهم الكلي النسقي للقرآن الكريم أمامنا مسافة، أول هذه المسافة إحكام أمر المراد بالألفاظ ذات المفاهيم، أي: إحكام أمر مفاهيم القرآن الكريم مفردة ومنسوقة في أنساق، ثم في نسق كلي شامل.

المعلم الثالث: معلم العلم بمفاهيم مصطلحات القرآن الكريم:

هاهنا أيضا ثلاثة أمور: هي مسألة خصوصية مفاهيم مصطلحات القرآن، ومسألة توصية النسق والرؤية القرآنية، ومسألة ضرورة المعجم المفهومي للمصطلحات القرآنية.

أول ما يبدأ به أول نص لغوي هو المفردات والألفاظ، وهذه الألفاظ نوعان كبيران:

- نوع يتكلم عن شيء عادي كشرب ودخل وخرج وكتب ونحوها.

- ونوع يدل على ما يقال له اليوم: «المفهوم»، أي يدل على معنى له ارتباطات وامتدادات وأشكال ويكون جزءا من رؤية عامة، هذه هي المصطلحات وألفاظ المعاني بصفة عامة أقول أساسا وستمحص فيما بعد هي مصطلحات، ولا يعجبن أحد من هذا الكلام.

فأولا هناك في التاريخ نصوص عند الذين استعملوا لفظ مصطلحات القرآن قبلنا بقرون من أهل التفسير، ومن أكثر المكثرين في هذا الاستعمال الطاهر بن عاشور رحمه الله تعالى في تفسيره أكثر من ستة أو خمسة وستين نصا التي استعمل فيها اصطلاح القرآن، ومصطلحات القرآن، والمصطلح القرآني وغيرها؛ ولكن الذي هو أهم من كل هذا هو أن الإدراك الجزئي والتجزيئي للرؤية القرآنية مفسد لها من الناحية العملية، ومفسد للإنسان الذي بني على أساسها، فلذلك لنحصل على ما سبق تسميته بالفهم الكلي النسقي للقرآن الكريم أمامنا مسافة، أول هذه المسافة إحكام أمر المراد بالألفاظ ذات المفاهيم، أي: إحكام أمر مفاهيم القرآن الكريم مفردة ومنسوقة في أنساق، ثم في نسق كلي شامل، هذا الأمر ما سببه؟ يقولون: القرآن جاء باللسان العربي، نعم أتى باللسان العربي، فالألفاظ هي الألفاظ؛ لكن المراد غير المراد، وليس منذ البداية بل في النهاية، ولذلك

المعجم المفهومي لمصطلحات القرآن الكريم، فعلا هذا شيء لم يحدث قبل، والطريق الوحيد -حتى الآن- الذي نعلمه للوصول إليه هو ما يسمى بمنهج الدراسة المصطلحية الذي يقوم على الأركان الخمسة المعروفة: الإحصاء، الدراسة المعجمية، الدراسة النصية، الدراسة المفهومية، العرض المصطلحي. هذا الأمر الحاجة إليه لا تزداد إلا اشتدادا، وهو سيصبح يوم يظهر بحقه فتحا جديدا للأمة، به يبتدئ تجديد فهم القرآن.

تتمة ص: 12

السنن الإلهية في السيرة النبوية من خلال الهجرة النبوية

د. رشيد كُهُوس *

إن الوقوف على السنن الإلهية(1) في الهجرة النبوية له أهمية بالغة إذ إن هذا الحدث العظيم يمثل محطة فاصلة في تاريخ الدعوة الإسلامية؛ حيث برزت من خلاله شعائر الإسلام إلى العلن، وخضعت أحكامه للتطبيق العملي، وذلك من خلال رعاية النبي للسنن الإلهية، وتسخيره لها، وعمله بمقتضاها.

ومن ثمّ لم يغفل سيد الوجود وهو المؤيد بالوحي في حركاته وسكناته الأخذ بالسنن، وكان يوجه أصحابه الكرام دائما إلى مراعاتها في كل أمورهم الدنيوية والأخروية، وهذا يتضح جليا في هجرته إلى المدينة؛ كما يأتي بيانه:

أولا - الهجرة سنة من سنن الله تعالى في دعوة الرسل:

قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (76) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (77)﴾ (الإسراء)

إن سيد الوجود قد علم من أوّل يوم من بعثته أنّه سيَخرُج من بلده مُهاجرًا؛ ففي حديثه مع ورقة بن نوفل عندما اصطحبَتْه زوجُه خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها إلى ابن عمّها، عندها قال له ورقة: «هذا النامُوسُ الذي نزّل الله على موسى، يا ليتَني فيها جَذَعًا، ليتَني أكون حيًا إذ يُخرجك قومُك، فقال رسول الله ﷺ: «أَوَمُخرِجيَّ هم؟!»، قال: نعم، لم يأت رجلٌ قطّ بمثْل ما جئتَ به إلا عُودي، وإنْ يُدركْني يومُك أنصُرْكَ نصرًا مُؤزّرًا، ثم لم ينشَبْ ورقةُ أنْ تُوفِّي»(2).

ولذلك، فإن الهجرة سنة من سنن الله في أنبيائه ورسله، فهذا نوح عليه السلام هاجر ومن آمن معه في سفينة حتى استوت على الجُوديّ.

وهذا إبراهيم الخليل عليه السلام كانت دَعوته أصلًا بأرض العراق، إلاّ أنّه كانت له هِجرات إلى الشام ومصر وأرض الحجاز.

وهذا كَليمُ الرحمن موسى عليه السلام كانت له كذلك هِجرات قبل بعثته وبعدها، فقد هاجر قبل بعثته خَائفًا يترقّب، وهاجر بعد بعثته بعد أنْ كذّبَه فرعون وقومه.

وهذا يعقوب عليه السلام هاجر من بابل إلى فلسطين، وهذا المسيح عيسى ابن مريم عليهما السلام هاجر من فلسطين إلى مصر.

وكل الأنبياء كانت لهم هجرات وفق سنة الله المطردة.

ثانيا - الأسباب والمسببات:

إن الإيمان بالله تعالى والاعتماد والتوكل عليه لا ينافي أبدا الاستفادة من سنن الله التي جعلها الله في هذا الكون ناموسا ثابتا ومطردا، ولا يناقض اتخاذُ الأسباب المادية التي أراد الله تعالى أن يجعلها أسبابا في هذا الكون التوكلَ عليه.

ولهذا أخذ النبي ﷺ بسنة الله في الأسباب ومسبباتها لما جاءه الأمر الإلهي بالهجرة إلى المدينة، فقام بتهييء الأسباب الكاملة لنجاح الهجرة وهو متوكل على الله تعالى في الأمر كله، متوسدا عتبة الافتقار إلى رب الأرباب..

ذلك بأن نصر الله تعالى لنبيه ﷺ في الهجرة النبوية لم يأت من فراغ، وإنما جاء نتيجة لجملة من الأسباب التي يسرها الله تعالى لحبيبه وصفوة خلقه ﷺ لنجاح هجرته؛ حيث تيقن ﷺ من استعداد الأنصار لقبول دعوة الإسلام ونشرها في المدينة حيث لم تبق دار من دور الأنصار إلا ودخلها نور الإسلام، تلاه بيعة العقبة الأولى وبعث مصعب بن عمير رضي الله عنه سفيرا للإسلام بالمدينة، ليعلم الناس دينهم، وأمور شريعتهم، ويقرئهم القرآن الكريم ويهيئ التربة الصالحة للدعوة، تلاه بيعة العقبة الثانية التي مهدت الطريق للهجرة بنشر الإسلام في المدينة، وتعهد الأنصار بحماية النبي ﷺ مما يحمون به أنفسهم في المنشط والمكره، وموافقتهم على أن تكون المدينة دار هجرته، ثم تلاه هجرة الصحابة أرسالا وجماعات، وإشراك النساء في إنجاح الهجرة.

تلاه الإذن الإلهي للنبي ﷺ بالهجرة إلى المدينة، فاختار ﷺ الصديق الحميم المحب الرفيق في الطريق وهو أبو بكر الصديق رضي الله عنه واستبقاه إلى جانبه حين أذن لجميع المؤمنين بالهجرة، وأخبره في الوقت المناسب، وأمره بكتمان أمر الهجرة حيث لم يعلم بها إلا آل أبي بكر، وعلي، وأمره بالمبيت في فراشه، واستعان على ذلك بالسر والحيطة والحذر، وخرج من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته في النهار ساعة القيلولة والهاجرة وفي الحر الشديد(3)، وأعد

الصديق رضي الله عنه راحلتين، واستأجر الدليل الخبير بالطريق (عبد الله بن أُرَيْقِط وكان مشركا)، وبحث عن مكان يستقرّ فيه حتى تخْمُد شدّة البحث عنه، فاختار غار ثَور ومكثا فيه ثلاثة أيام، وسار بطَريق الساحل معاكسا لطَريق المدينة، واختار رجلاً (عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنه) يكتشف حركة كفار قريش بمكة ويتقصى أخبارها وهو ما يسمى اليوم بجهاز الاستخبارات، وآخر يمحو بغَنمه آثار أقدامه (عامر بن فُهَيْرة مولى أبي بكر)، ومن يأتيه بالزاد كل يوم (أسماء بنت أبي بكر -رضي الله عنهما-)، مع إخفاء شخصية النبي ﷺ في طريق الهجرة: فعن أنس رضي الله عنه "أن أبا بكر كان رديف النبي ﷺ من مكة إلى المدينة، وكان أبو بكر يختلف إلى الشام، فكان يعرف وكان النبي لا يعرف، فكانوا يقولون: يا أبا بكر من هذا الغلام بين يديك؟ قال: "هاد يهديني السبيل"(4).

واتخذ النبي ﷺ جميع الخطط الحكيمة والأسباب الموصلة إلى نجاح هجرته وبلوغ هدفه، ثمّ توكل على الله تعالى -قبل ذلك وبعده- حق التوكل.

ثالثا: سنة الله في المكر والماكرين.

اتَّعَدَت قريش في دار الندوة على اغتيال النبي ﷺ؛ وذلك بأن يأخذوا من كل قبيلة فتى شابا جليدا نسيبا وسيطا، يعطون كل واحد منهم سيفا صارما، ثم يعمدون إليه، فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه، فيتفرق دمه بين القبائل(5).

فأتى جبريل عليه السلام النبي ﷺ فقال: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه. فلما كانت عتمة من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه متى ينام فيثبون عليه، فلما رأى النبي ﷺ مكانهم قال لعلي بن أبي طالب: نم على فراشي وتسج ببردي هذا الأخضر، فنم فيه فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم، وكان رسول الله ﷺ ينام في برده ذلك إذا نام.

.. وخرج عليهم النبي ﷺ، فأخذ حفنة من تراب في يده... وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه، فلا يرونه، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو هؤلاء الآيات من يس: ﴿يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ إلى قوله تعالى ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (يس:1-9)، حتى فرغ ﷺ من هؤلاء الآيات... فأتاهم آت ممن لم يكن معهم، فقال: ما تنتظرون هاهنا؟ قالوا: محمدا؛ قال: خيبكم الله! قد والله خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلا إلا وقد وضع على رأسه ترابا، وانطلق لحاجته..(6).

إن الإيمان بالله تعالى والاعتماد والتوكل عليه لا ينافي أبدا الاستفادة من سنن الله التي جعلها الله في هذا الكون ناموسا ثابتا ومطردا، ولا يناقض اتخاذُ الأسباب المادية التي أراد الله تعالى أن يجعلها أسبابا في هذا الكون التوكل عليه

وفي هذا يقول الحق تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (المائدة:67)، ويقول جل ذكره: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ (الطور: 30-31).

إنها سنة الله في المكر والماكرين، وسنته في نصر عباده المرسلين.

رابعا - سنة التأييد الإلهي.

يقول الله تعالى وتقدس: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: 40).

عَنْ أبي بَكْرٍ الصديق رضي الله عنه قَالَ: "كُنْتُ مَعَ النبي ﷺ في الْغَارِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِأَقْدَامِ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ، لَوْ أَنَّ بَعْضَهُمْ طَأْطَأَ بَصَرَهُ رَآنَا. قَالَ: «اسْكُتْ يَا أَبَا بَكْرٍ، اثْنَانِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا»"(7).

كما أن في قصة سراقة الذي عثرت به فرسه في كل مرة يحاول اللحاق برسول الله والقبض عليه(8) أعظم دليل على تحقق وعد الله بعصمة نبيه من الناس، وعلى التأييد الإلهي والنصر الرباني لنبيه ﷺ.

لقد كان سراقة في بداية أمره يريد القبض على النبي ﷺ، ويسلمه لزعماء مكة لينال مائة ناقة، وإذا بالأمور تنقلب رأسًا على عقب -لما رأى المعجزة أمام عينية-، ويصبح يرد الطلب عن رسول الله ﷺ فجعل لا يلقى أحدًا من الطلب إلا رده قائلا: كفيتم هذا الوجه(9).

وصدق الله عز وجل حيث قال: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (المجادلة: 21).

خامسا - سنة التغيير الاجتماعي:

إن الهجرة النبوية غيرت مجرى التاريخ تغييرًا لم يشهد له التاريخ مثيلًا؛ حيث أعقبها بناء إنسان صالح، ومجتمع مسلم أخوي، ودولة إسلامية قوية، وعمران إسلامي أصيل، عاش الناس في ظلاله كالجسد الواحد إخوة متوادين متراحمين، ومتعاونين متكافلين.

مسك الختام:

إن الأمة المسلمة في أمس الحاجة إلى استحضار معاني الهجرة النبوية، والوقوف عند سنن الله فيها؛ لتكون نبراسًا يبصرها بواقعها، ويُضيء لها مستقبلها الحضاري، ويعيدها إلى الطريق المستقيم.

وإن الأمة لقادرة بإذن الله تعالى -إذا عادت إلى مصدر عزها- أن تكون رحمة في العالمين وبلسما وشفاء للناس أجمعين.

﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (آل عمران: 160).

---

1 - "السنن الإلهية هي: إرادة الله الكونية، وأمره الشرعي، وفعله المطلق، وكلماته التامات، وحكمته في آفاق الكون وتسلسل التاريخ، الجارية بالعباد عبر رحلة الأعمار إلى المعاد". انظر كتاب: علم السنن الإلهية من الوعي النظري إلى التأسيس العملي، رشيد كهوس، ص22، منشورات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، الإمارات العربية المتحدة، ط1: 1436هـ/2015م.

2 - صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، ح4670.

3 - انظر: سيرة ابن هشام، 2/354. البداية والنهاية لابن كثير، 2/184-185. تاريخ الطبري، 1/586. سيرة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، سليمان الندوي، ص51. الفصول في سيرة الرسول لابن كثير، ص33.

4 - مصنف ابن أبي شيبة، باب ما قالوا في مهاجر النبي ﷺ، 7/346.

5 - انظر: سيرة ابن هشام، 2/350-352. البداية والنهاية، 2/182-183.

6 - سيرة ابن هشام، 2/352-354. البداية والنهاية، 2/183.

7 - صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي وأصحابه إلى المدينة، ح3922.

8 - انظر: صحيح البخاري، كتاب المناقب، ح3906. سيرة ابن هشام، 2/357-358. البداية والنهاية، 2/191-192.

9 - انظر: السيرة النبوية، علي محمد الصلابي، ص275.

* أستاذ السيرة النبوية وعلومها بكلية أصول الدين بتطوان.

الهجرة النبوية:

دلالات هاديات ودرر غاليات

د. كمال الدين رحموني

سيرة رسول الله ﷺ ليست تاريخا وزمنا فحسب، أو احتفالا واحتفاء سرعان ما يمضي، وإنما سيرته رسمٌ لمعالم الواقع الحي في حياة الناس.

سيرةُ رسول الله ﷺ كتاب مفتوح منذ أكثر من خمسة عشر قرنا، لن تُغلق صفحاته إلى أن يأذن الله بالنهاية، ومن أعظم محطات السيرة النبوية حدث الهجرة.

إن حدث الهجرة ليس احتفاء بوقائع مرت وانتهت، وإنما هو التزام متجدّد بتجدّد زمن الأمة حاضرا ومستقبلا. وحقيقة الاحتفاء تكمن في تفهّم المعاني وتأمل الدلالات وتنزيل الأهداف. هذه المعاني التي قامت على أساسها دولة الإسلام، ومكّن الله بها للأمة في الأرض لقرون من الزمن. إن الهجرة بدلالاتها الكبرى قيمة مستمرة في حياة المسلمين، ومطلب إسلامي حين تدعو الضرورة إليه، للتضحية من أجل الدين والمبدأ والفكرة والمعنى، لا يُعفي منه التعلّل بمبررات الدنيا الزاهية، ولا مُثَبّطات الحياة الآسرة، ولذلك كان التهديد الرباني للمتذرعين بالحجج الواهية، لتعطيل ما يسهم في التمكين للرسالة الخاتمة، قال تعالى: ﴿إن الذين تَوَفّاهم الملائكةُ ظالمي أنفسهم قالوا فيمَ كنتُم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرضُ الله واسعةً فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنمُ وساءت مصيرا إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلةً ولا يهتدون سبيلا فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفُوّاً غفورا﴾ (النساء: 96-98).

الهجرةُ لم تكن من بلد إلى بلد أفضلَ، أو طلب لحياة عيش أرغد، وإنما هي تركٌ للديار، وبذلٌ للأموال والأرواح حفظا لحسن الاختيار.

الهجرة رحلة شاقة لم يمنع منها التعلّق بالبلد الحرام الأحبِّ إلى قلب الحبيب، ولذلك نظر النبي ﷺ إلى مكة مخاطبا إياها بقوله: «إنك أحبُّ البلاد إلى الله، ولولا أن قومك أخرجوني منك ما خرجت».

الهجرةُ لم تكن هروبا من مواجهة واقع آسن، ولا فرارا من مقاومة بيئة شركية موبوءة، ولا نكوصا عن مقارعة مجتمع كفري عنيد، وإنما كانت تمهّد لمرحلة جريئة، وأيام عظيمة حاسمة لمصير الدعوة والدولة، بلْ ولمصير الإنسانية كلّها. إن أول كلمات خطّها رسول الله ﷺ في مشروع الهجرة المباركة -قبل وقتها بزمن حين جاءته قريش مُساومةً- هي كلمات معدودات، اختصرت عظمة النبي الكريم عقيدة وفكرا وبيانا: «والله يا عمّ لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الدين ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه» (سيرة ابن هشام)، فلو قبل محمد ﷺ المال والجاه والمنصب لما كان في حاجة إلى أن يهاجر أصلا، لكنه كان يريد ما هو أعظم من الشمس والقمر، ما هو أعظم من المال والجاه، كان يريد عقيدة تنتشر، وفكرة تسود، ومجتمعا يتأسّس، وإسلاما يقوم على وجه الأرض.

فأي دلالات هاديات، من درر الهجرة الغاليات؟

1 - مقصد النية:

إن ظاهرة الهجرة من البلد الأم في العصر الراهن، شكلت عنوانا من عناوين مآسي الإنسان في البنية الاجتماعية المعاصرة، فهل تستوي الهجرة بالدين وللدين، والهجرة بالدنيا ولها؟ يقينا ﴿لا يستويان مثلا﴾، ولذلك كانت الهجرة النبوية فعلا محفوفا بمقصد النية الذي يقاس به العمل قبولا ورفضا فـ «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» (البخاري). وشتان بين هجرتين: هجرةٍ إلى امرأة ينكحها أو دنيا يصيبها، وهجرة لبناء أمة، لا يستوي من ترك عزيزَ ما يملك، ابتغاء مرضاة الله، ومن عاش لحياته ودنياه.

2 - التجرد:

لقد حملت مقدمات الهجرة صورا عظيمة للتجرد للدين ولأهداف الإسلام الكبرى، في صنيع أبي بكر بماله كله وترك بيته خاليا إلا من فتيات ربّاهن الإسلام، ومنهن أسماء المجاهدة ذات النطاقين، يدخل عليها جدُّها وكان أعمى وكان كافرا، فيقول: فَجَعَكُنّ أبوكن أخذ المال كله، تقول أسماء: فأخذت أحجارا ووضعتها في كيس من جلد، وأخذت بيد جدي الأعمى فوضع يده فظن أنه مال، ثم تقول: "فوالله ما ترك لنا أبي شيئا ولكن أردت أن أسكت هذا الشيخ"، هذا نموذج للتجرد من أجل تحقيق الأهداف، فهل نتجرد من الدنيا كما تجرد منها هؤلاء العظام، وهل نبذل أعشار ما بذلوا. إن الانتماء للدين وحده لا يكفي، فزعْمُ التدين بعاطفة خادعة تعطيل لأهداف الدين الكبرى.

3 - الهجرة سبيل بعد استنفاذ أبواب العمل:

بعد ثلاث سنوات من موت أبي طالب وخديجة رضي الله عنها، ضاقت الأرض بالدعوة، فكانت الحاجة إلى مكان يُنصر فيه الحق، وتُحضن فيه الدعوة، كان من الممكن أن يكون مكانُ الهجرة مختلفاً عن المدينة، ولكن الله أراد أن تكون طيبةُ دارَ الهجرة، فليس المكان هو المهم، ولكن الأهم أن الهجرة لم تكن عملا سلبيا، أو كسلا عن الدعوة في مكة، أو هروبا من تكاليف الدعوة أو استسلاما لضعف النفس مما لاقت من عناء، ولكن ما ترك المسلمون بلدهم إلا بعد أن أُغلقت تماما أبواب الدعوة.

والعبرة، أنه إذا بقيت أبواب العمل مفتوحة فالأوْلى أن يبقى المسلم مرابطا على ثغر من ثغور الإسلام، حتى وإن قلّت متطلباتُ العيش الرغيد، حتى يستنفذ المسلم طاقاته كلَّها، ويتخذَ الأسباب جميعَها في العمل للإسلام، حتى إذا ضاق المكان، وسُدّت منافذ الخير كان البحث عن مجالات أخرى وإبداع وسائل جديدة، فلكل مرحلة وسائلها وظروفها ومنهج عملها، ولذلك من الخطأ أن يُصرَّ المسلم على الوسائل نفسها، أو يتعصبَ لمنهج بعينه، بل لا بد من تكييف مناهج العمل ووسائله على ضوء الأهداف لأن الدعوةَ أمر ثابت والمناهج والوسائل متغيرات، هذا درس رباني مهم، ومنهج قرآني متكامل في تسديد العاملين، والدليل على أن الهجرة النبوية لم تكن خيارا نبويا محضا، ولا قرارا محمديا خالصا، وإنما كانت أمرا إلهيا حين استنفذ النبي ﷺ كل أسباب الدعوة في مكة، فكان عليه أن يجدَ المكان، ويتيحَ للدعوة مجالاتٍ أرحبَ، وفضاءاتٍ أنسبَ، فكانت الهجرة إلى المدينة.

4 - الهجرة مطلب إنساني:

لقد سبقت الهجرةَ النبوية هجرةُ الصحابة إلى الحبشة، في حين كانت الهجرةُ -الحدثُ والمعنى- إلى المدينة المنورة، وفرق كبير بين الهجرتين: الهجرة الأولى كانت هدفا صغيرا، في ظرف عصيب تطلّب الهجرة بالدين إلى مكان آمن، حفظاً للنفس وفرارا بالدين، فكان المهاجرون إلى الحبشة بمثابة لاجئين -بمصطلح العصر- إلى ملك عادل لا يُظلم عنده أحد، أما هجرته إلى المدينة فكانت إقامة لدولة وتمكينا لأمة، فكانت المدينة مركزا رئيسا لها وحرما آمنا لأهلها، والعبرة، أن الهجرة إلى الحبشة هجرة بالإسلام إلى رجل قد يستطيع حماية المستضعفين وقد لا يدوم على ذلك، لأن مآله الزوال، لكن الهجرة إلى المدينة هجرةٌ إلى شعب أحب الإسلام، والمعنى أن من شروط نجاح المشروع الإصلاحي أن يكون محتضَنا من لدن القواعد الشعبية التي تبذل أقصى ما تستطيع لإنجاح المشروع، ولو كلف ذلك التضحيةً بالدنيا وزينتها، والحياةِ وزخرفها، والنفس ورغباتها، وموقفُ الأنصار في احتضان النبي وأصحابه خير شاهد، فأثنى عليهم ثناء عظيماً وهو يقول: "لولا الهجرةُ لكنتُ امرأ من الأنصار، لو سلكت الأنصار وادياً أو شعباً لسلكتُ وادي الأنصار أو شِعْبهم".

5 - الهجرة تخطيط لقيم إنسانية:

لم تكن الهجرة النبوية أمرا ارتجاليا، ولا عملا عفويا، بل كانت بإعداد محكم وصبر جميل، وحكمة بالغة، وفقه بصير، فما كانت العشوائية أبدا من أساليب الإصلاح في الإسلام، ومن مظاهرها تغليبُ المنهج الأدنى في الإصلاح على الأوْلى، ومن ذلك الرهانُ على التغيير من منطلق الدولة مقابل الأمة أو الشعب حين تُستوفَى شروط بناء القاعدة الشعبية، عقيدة وفكرا وسلوكا، وهو ما كان قد استكمل بناءه رسول الله ﷺ قبل حدث الهجرة، وهو الغائب اليوم في مشاريع التغيير، مع التباين الكبير بين واقع شركي بسيط في زمانه، مقابل واقع الاستكبار والكفر في عالمنا المعاصر. إن شعبًا يُساسُ ببرامج كبرى، وإن اسْتُمدَّ من روح الدين، في غياب البناء السوي لهذا الشعب، وتربيته على مفاهيم الدين الصحيحة، ومعايير الأخلاق القويمة، وتنمية حب الدين في نفسه، وما يتطلّبه هذا البناء من استعداد وتجاوب للتضحية من أجل الدين وأحكامه ومشاريع التنمية التي تقوم على أساسه، كلُّ ذلك هو البرنامج الأوْلى، والتحدي الأعلى الذي يواجه العاملين للدين، فهل تتوفر هذه القاعدة الشعبية التي تحب الدين، وتبذل من أجله الغالي والنفيس، في واقع تعددت فيه وسائل المكر بالليل والنهار، والتخطيط الرهيب للإيقاع بكل من له صلة بالدين، وداع إلى تنزيل مشاريع الإصلاح النابعة من مرجعية الإسلام؟

6 - الهجرة باب مفتوح للعمل المتواصل:

ولذلك قال النبي ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استُنفرتم فانفروا» (البخاري ومسلم). فالجهاد بأشكاله المختلفة، من جهاد بالنفس، وجهاد بالمال، وجهاد بالكلمة الطيبة، والدعوة بالتي هي أحسن، والبذل والحركة المتوازنة، والعمل الصالح. والسعيد من انشغل بعمله عن قوله وبنفسه عن غيره وبآخرته عن دنياه.

7 - الهجرة وقفة مع الذات لتصحيح الطريق:

من معاني الهجرة: القطيعة ونشدان الشيء، ومعنى ذلك أن الهجرة قطيعة مع مسلك منحرف، ومنهج متذبذب وسلوك خاطئ، وبداية لطريق جديد على أسس مسلمات العقيدة السليمة، والفكر النيّر، والخلق القويم، وهو المعنى الواضح في حديث رسول الله ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه» (صحيح البخاري).

الهجرة عودة إلى الذات، وتقليب لصفحات الحياة، ومحاسبةٌ للنفس على ما فات، وعزمٌ على التوبة من الزلات، والاستقامة على الطاعات والصالحات. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

من صفات المدرس الناجح (1)

إن مهنة التدريس من المهن الشريفة التي ينبغي أن لا يتصدى لها إلا مدرس شريف، يستحضر أثناء عمله أن مسؤولية التعليم تكليف وتشريف، فكونها تشريف أن الله تعالى وفق المدرس واختاره لمهنة التدريس والتعليم ولم يختره ليكون لمهنة أخرى غير هذه.

وأما كونها تكليفا؛ فالله سبحانه وتعالى كلف المدرس للقيام بهذه المهمة العظيمة؛ سيرا على درب الأنبياء والمرسلين، واقتداء بالنبي عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، حيث إن المدرس كلف بتعليم وتربية الأجيال الصاعدة التي ستحمل مشعل هذه الأمة حالا ومآلا في التربية على مكارم الأخلاق والدعوة إلى الله ﷻ والالتزام بدينه علما وعملا، تلقيا وتبليغا، وفي غياب استحضار هذه المسؤولية الشريفة والخطيرة سينعكس الأمر سلبا، وبالتالي: بدل أن يكون المدرس معلما للأجيال مسهما في بناء جيل صالح ومتوازن، يصبح دون ذلك؛ ودون علم منه يحسب نفسه أنه يحسن صنعا،-ما أكثر هذا الصنف داخل الجامعات والثانويات- لذلك ينبغي أن تتوفر في المدرس مجموعة من الصفات الإيجابية حتى يكون مدرسا ناجحا بتوفيق الله تعالى، وهي كثيرة ومتعددة، أجملها وأختصرها في عنصرين اثنين، واللذين بدونهما لن يكون المدرس ناجحا، هذه الصفات منها ما هو علمي يتعلق بالكفاءة العلمية والمهنية ومنها ما هو ذاتي: يتعلق بشخصية الأستاذ وآثارها على المتعلم إما إيجابا أو سلبا.

1 - صفات العلمية:

أقصد بالصفات العلمية أن يكون الأستاذ متمكنا من المادة المعرفية في مجال تخصصه معرفيا ومنهجيا وبيانيا -أي القدرة على البيان- كما ينبغي للمدرس أن يتصف بالتواضع مع طلبته وتلامذته، من أجل الاستفادة منهم معرفيا ومنهجيا وأن يعترف أنه يتعلم على أيدي المتعلمين، ف: (الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها).

إننا حين نتحدث عن الصفات العلمية التي نقصد بها الكفاءة العلمية والتمكن الدقيق في مجال التخصص؛ فإن ذلك يعني اكتساب قدرات ومهارات متنوعة تساعد المعلم على الإجابة عن الإشكالات العلمية التي تعترض التلاميذ أو الطلبة، آنئذ نقول إن الصفات العلمية للمدرس توفرت واكتملت، وما على هذا المدرس إلا أن يكد ويجتهد للقيام بهذه المهمة على أحسن وجه، ورغم ذلك كله تبقى هذه الصفات العلمية ناقصة وغير مكتملة إذا لم يضف إليها صفات أخرى أساسية تكمل وتزين عمل المدرس ومتعلميه على حد سواء.

2 - صفات الذاتية:

كثيرة هي الصفات الذاتية، لكن يمكن إدراجها ضمن الأخلاق الفاضلة التي تنتج عن العلم الشرعي خصوصا. فما فائدة التمكن المعرفي والمنهجي والبياني إذا لم تكن الأخلاق أس الأساس لكل ذلك!! حيث ينبغي للمدرس أيا كان مجاله ومستوى تدريسه أن يجسد أخلاقه عمليا على أرض الواقع أقوالا وأفعالا وسلوكا، وأن يحرص كل الحرص على تطبيق ذلك مع الطلبة داخل الفصل الدراسي وخارجه بل مطلوب منه ذلك أين ما حل وارتحل في والأسرة والمجتمع.

فهذا رسولنا ﷺ الذي هو قدوتنا وأسوتنا كانت من أهم وظائفه على الإطلاق؛ التجسيد العملي لشرع الله تعالى حتى قالت عنه أمنا عائشة رضي الله عنها لما سئلت عن أخلاقه ﷺ: "كان خلقه القرآن"() إنه تجسيد عملي واقعي على الأرض، وما أحوجنا اليوم إلى أساتذة تجتمع فيهم صفات الأخلاق الحميدة والكفاءة العلمية والمهنية الرشيدة، حيث إن الذي يعرف واقع المؤسسة التعليمة (جامعات ومدارس) لابد أن يعترف أن الواقع التعليمي المغربي بصفة عامة يحتضر في لحظاته الأخيرة إذا لم يسارع المسؤولون لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، وكفى من استيراد البيداغوجيات ورفع الشعارات دون أثر خير يرى في الواقع.

ولذا وجب مراعاة التكوين المعرفي والتربوي للمدرس؛ لأنه من أهم عناصر المنهاج الدراسي، وعليه المدار في إنجاح أو إفشال الفعل التربوي والتعليمي بمنظومتنا التربوية.

عبد الحفيظ حمبش

تتمة الافتتاحية

ثانيا: تصحيح العمل والسلوك لأنه لا إيمان مقبول بغير عمل صالح، فهما متصلان صلاحا وفسادا، فلا خير يرجى إن لم تُولَ العناية الكبرى لقطاع التربية الأسرية والمدرسية والاجتماعية.

ثالثا: تنشئة الأجيال وتربيتها على قيم الذات قبل الذوبان والانفلات بسبب دائي الشبهات والشهوات، فأجيالنا تعيش الخواء الروحي والتيه الفكري والفساد الأخلاقي، والعمى الغريزي.

على مستوى الأمة:

إن حاجة الأمة ماسة إلى إعادة بناء اختياراتها بما يجعلها خادمة لرسالتها في كلياتها وجزئياتها وفي حالها ومآلها، لتكون مؤهلة للشهود الحضاري والإمامة الصالحة للبشرية. وعلى رأس ذلك:

تقديم شرع الله وجعله هو الهدى وما عداه تابع له، وحمايته من التطاول عليه بالطعن وبسوء التأويل، والتمكين له بكل ما يقيمه من الموارد والمصادر والطاقات، وتبويئه محل الصدارة في توجهات الدولة ومؤسساتها الرسمية والحزبية وغيرها بفقهه الفقه الرشيد ونشر العلم به والهداية إليه.

الاسترشاد بهدايات شريعة الإسلام في حل معضلات الأمة سياسيا واقتصاديا وتعليميا وإعلاميا وقضائيا، وتكوين العنصر البشري القادر على الاجتهاد الشرعي الصحيح والصالح بقصد التفاعل الإيجابي مع الواقع والمحيط الإنساني العالمي.

تقديم وحدة الأمة على غيرها من المصالح الطائفية الضيقة لأنها الأصل وما عداها من الاختلاف خادم لها، فلا حاجة لرفع راية جديدة تناقض الوحدة أو تخرم عرى المسلمين.

العناية بالإنسان وتحريره من الفقر والجهل والخوف والظلم وتأهيله أخلاقيا وعلميا وإعداده لحمل رسالة الأمة واستثمار طاقاته في الإبداع النافع للدين والدنيا.

فاللهم ارزقنا السداد واهدنا سبل الرشاد ووفقنا لما يحقق الخير في المعاش والمعاد.

تتمة ص: 8-9

خاطب الله سبحانه وتعالى العرب بلغتهم التي يفهمون، لكنه أدار الألفاظ في سياقات داخل القرآن الكريم نفسه جعلها تكتسب خصوصية مفهومية لم تكن عند العرب قبل، يتضح هذا بجلاء في الألفاظ الغليظة المعروفة كالصلاة والزكاة الصيام والحج، لم يكن هكذا، فهذا واضح في هذه المعاني الكبيرة ولكنه أيضا في المعاني الأخرى أيضا هناك الخصوصية، فليس الصدق هو الصدق ولا الصبر هو الصبر ولا الوفاء هو الوفاء ولا أي من تلك المعاني، هناك تلك الخصوصية الدلالية بسبب السياقات التي وضع الله ﷻ فيها هذه الألفاظ، فاكتسبت خصوصية خاصة ضمن رؤية خاصة، فالألفاظ ضمن الرؤية الجاهلية أو ضمن الكلام العادي للإنسان لها معنى؛ ولكنها هاهنا لها معنى آخر زائد على ذلك المعنى، فالمعنى الأول منطلق فقط، ولكن عندما تدور مع الأمر حيث دار وتبتدئ في الفرك، وتبتدئ في التحليل بالمعنى الكيماوي، ثم تجمع الجزئيات من كل نص، وتركب ما ينبغي تركيبه في النهاية ستصل إلى أشياء في قمة الخصوصية، وفي قمة الطرافة، وفي قمة الانسجام مع ما لها به علاقة. وهذه الخصوصية في المفاهيم القرآنية أقول هذا سببها، وبسبب هذه الخصوصية يمكن النظر إلى القرآن الكريم على أنه يتضمن معجزة لسانية؛ لأن التطور الذي يحصل في دلالات الألفاظ يحتاج إلى مساحة من الزمن كبيرة تقدر بالقرون كما هو في الألفاظ الأخرى العادية، ولكن في ثلاث وعشرين سنة حدثت طفرات دلالية وطفرات مفهومية، ما كان لها أن تحدث بوجه من الوجوه لولا الله جل جلاله، والقرآن شاهد على هذا يوم يأتي من يستطيع إبراز هذا وبيان هذا.

لذلك كان هذا الشيء الأخير الذي أحببت الإشارة إليه والذي تسمعونه مني الآن، وهو هذا المعجم المفهومي لمصطلحات القرآن الكريم، فعلا هذا شيء لم يحدث قبل، والطريق الوحيد -حتى الآن- الذي نعلمه للوصول إليه هو ما يسمى بمنهج الدراسة المصطلحية الذي يقوم على الأركان الخمسة المعروفة: الإحصاء، الدراسة المعجمية، الدراسة النصية، الدراسة المفهومية، العرض المصطلحي. هذا الأمر الحاجة إليه لا تزداد إلا اشتدادا، وهو سيصبح يوم يظهر بحقه فتحا جديدا للأمة، به يبتدئ تجديد فهم القرآن، التجديد لا الفهم الأصلي طبعا فهذا قد كان لكنه أصابه ما أصابه عبر العصور، فكان ما كان مما تعلمون من حال هذه الأمة، ثم إذا تجدد الفهم سيتجدد إن شاء الله العمل..، وسيتجدد العهد.

إذن فمن هاهنا نبدأ وهو هذا الأمر الذي هو الاهتمام بمفاهيم الألفاظ القرآنية بما أمكن من وسائل- وقد قلت يوما سنة 1986: «إن مشكلة المنهج هي مشكلة أمتنا الأولى، فتظهر في كل شيء في أكلنا، في نومنا، في شربنا، في كلامنا، في حكمنا، في أي شيء.

المعلم الرابع: معلم الإيمان بالقرآن الكريم:

هب أن شخصا أوتي العلم باللسان، وأوتي العلم بالمقام، وأوتي العلم بالخصوصية؛ ولكن ليس بمؤمن، هذا لا يمكن طبعا؛ إذ بغير الإيمان لا يمكن أن يفهم القرآن أبدا، فالله سبحانه وتعالى صريح في هذا الأمر، ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يومنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى﴾ بدل أن يكون لهم نورا ينوِّر لهم الطريق ويبصرون ويستطيعون أن يفهموا فسيفهمون العكس، وهو عليهم عمى، ﴿أولائك ينادون من مكان بعيد﴾، فالإيمان شرط الاهتداء، والإيمان شرط الوصول إلى ما فيه الشفاء، والإيمان شرط السمع والإبصار؛ لأنه إذا لم يؤمن لن يسمع أصلا، ولا أقصد السمع الفزيائي؛ وإنما السمع القلبي؛ لأن ﴿لهم آذان لا يسمعون بها ولهم أعين لا يبصرون بها﴾.

المعلم الخامس: اتباع هدى القرآن الكريم:

كما شرط اللهُ تعالى الإيمانَ لفهم كتابه والاهتداء بكتابه والاستفادة من كتابه، شرط أيضا اتباع هدى القرآن ؛ لأنه إذا حضر الإيمان بدأ الخير ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم﴾، بسبب الإيمان يدخل الإنسان فيمن يهدى من عند الله ﷻ، شرط الاتباع، فهذا الإيمان لا يتصور أيضا بغير اتباع، فلا يمكن أن تدعي أو يدعي مدع أنه يؤمن بهذا القرآن ثم لا يتبع ما فيه، فالاتباع أيضا شرط الاهتداء، ﴿فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ وقال تعالى: ﴿فمن اتبع هدي فلا يضل ولا يشقى﴾، فلا ضلال إذا كان الاتباع، ولا شقاوة إذا كان الاتباع أيضا، فإن رأينا الشقاوة ورأينا الضلال أيضا فمعناه لا يوجد اتباع، وهو هذا الذي نراه بوضوح، وصلاة الفجر تصدق ما أقول، وكذلك مصلو الفجر هل يصلون؟ من يصلي ممن يصلي؟ أي الأشباح حاضرة فهل الأرواح أيضا حاضرة؟. فالمهم هو أن هذا الاتباع شرط في الاهتداء، ومانع من الضلال والشقاء، وهو شرط في الخروج من الظلمات إلى النور، ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾.

خاتمة: في ضرورة الجيل العلمي الراسخ الناسخ:

فلا بد من جيل من أهل العلم راسخ في العلم ﴿والراسخون في العلم﴾، وناسخ بسبب رسوخه، فينسخ الله تعالى به ما ألقى الشيطان ثم يحكم الله آياته، هذا الجيل الراسخ الناسخ هو الذي سيصحح المنهج، فيصح الفهم، ويصحح الفهم ليصلح العمل، ويصلح العمل ليحسن الحال. لا تقل ذهبت أربابه، فكل من سار على الدرب وصل.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

* مقال أعدته جريدة المحجة للنشر، وهو في أصله محاضرة للأستاذ الدكتور الشاهد البوشيخي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز فاس في افتتاح ندوة: "النص الشرعي: أسس الفهم وآليات التأويل"، يوم 28 /2015/10.

من أوراق شاهدة

لماذا تقدم المسلمون وتأخر غيرهم؟

ذة. فوزية حجبي
al.abira@hotmail.com

ماذا لو أطلقنا العنان للحلم في أزمنة غدا فيها الحلم جنحة، وقد يقود إلى المنافي والمعتقلات بتهمة الإرهاب والتفكير بما من شأنه..

وندرك بشعور المسلمين المؤمنين بمفهوم البنيان المرصوص أن الحلم غدا واحة سراب بالنسبة لمسلمين كانوا يحلمون بالكرامة والعزة فأصبح همهم ملجأ في منفى بعيد وإن كان رفقة الخنازير بحظائر الغرب.

ومع ذلك دعونا نستل جذوة الأمل من كنزنا المهجور كتاب الله تعالى الذي أمرنا فيه سبحانه بأن لا نقنط من رحمته وأن نتشوف إلى موعوده سبحانه بالتمكين..

دعونا نحلم بمنقذ جديد مستنسخ من رجالات الأمس ونسائه، ونذكر تحديدا الأمير شكيب أرسلان، منقذ ينكب على تسطير ملامح هذا الشتات العربي ومعالم مأساويته في خرائط العالم العربي، فيحدثنا عن هذا التأخر الجديد أمام تقدم متواصل لذلك الآخر حد مروره إلى السرعة القصوى في استعمارنا، وتفصيله بدهاليز مخابراته لربيع زائف على مقاسنا بخرائط عربية ملغومة الحدود حتى نظل نتهارش، مع تعطيل القدرات والهمم بزرع زعماء من ورق، وتحريك بيادقه من الداخل والخارج للتخلص منهم عند انتهاء مهامهم الوضيعة، وتأجيج انتفاضات بلا رأس ولا قدم؛ لشرعنة ما يسميه بالتدخل الإنساني باسم الدفاع عن الديمقراطية وحق الشعوب في تقرير مصيرها، ثم بعد إطفاء شموع زفة المسطولين المبتهجين بربيع هجين من بلاستيك، تدمير البنيات الإنتاجية وباقي القصة معروف.

وندرك بأننا لم نأت بجديد، وأن التشخيص لهذه الأوضاع الاستعمارية التي تمعن في تشتيت العالم العربي مشاع ومعه شجون وشجون، لكن ما يجعل لكتابات الأمير أرسلان خصوصيتها هو أن ملامح سيرة هذا الرجل الفذ تشير إلى أن محنة العالم الإسلامي إبان حياته كانت موطن دائه ومصدر أرقه وبنزين رحلاته المكوكية بين شرق وغرب ليصلح أو يحذر أو يحشد، وتلك هي أمارات الصدق التي قادت مفكرين مهتمين بالشأن الإسلامي إلى دعوته لصياغة معالم وجذور هذا النكوص الحضاري كتابة، فكان كتابه الشهير (لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟)، ولأن استيفاء هذا المؤلف حقه من البسط يستغرق مدادا كثيرا ليس هذا موضعه، فإن من بين أهم الملاحظات التي تستوقفنا في كتاب الأمير أرسلان هي اعتزاز كل الأمم بدياناتها وخصوصياتها الحضارية إلا الشعوب الإسلامية التي لا ترى لنفسها إقلاعا إلا بالتخلص من الدين، في الوقت الذي يورد فيه الكاتب أخبارا مذهلة عن الدعم المادي العملاق الذي تقدمه الدول الغربية لتنصير المسلمين وتستهبل عقول أبنائهم من المثقفين موازاة مع اختراقاتها التنصيرية لهم حين تنشر خطاب "الدين أفيون الشعوب"، ولا تفتأ تحيي في عقولهم المستلبة فكر فصل الدين عن الشؤون العامة للمواطنين، لتحقيق الإقلاع، وتشحنهم بإيديولوجية مقاطعة الدين للخروج من نفق التخلف.. بل تؤجج منسوب الكراهية لكل مظاهر التدين باعتبارها العائق الأساسي أمام اللحاق بركب الحضارة.

وما نتابعه من بوادر انشقاق وفرقة بين أبناء الشعب الواحد، واختزال مظاهر اعتلال الأوطان في تشبثها بالدين هي توابل متقنة الوصفات والجرعات لزرع مشاعر النفور من تمظهرات الدين معاملة ولباسا، وقد قرأت لمثقفة في صفحة للتواصل الاجتماعي وهي تكسر كل حواجز الحياء، وتستعمل قاموسا جنسيا مخيف الاجتراء على الثوابت الدينية، فتتندر ساخرة وبلهجة إباحية من استعانة المتدينين بحديث رسول الله ﷺ: «أترضاه لأمك، أترضاه لأختك..» وتلك قصة أخرى.

وبالعودة إلى الأمير فإنه يرى أن بلاء الأمة في جاحديها لا يوازيه إلا تكلس عقلية جامديها من أبنائها الغاضبين من الغرب جملة والمشيعين لفكر مقاطعته تماما، وتلك داهية الدواهي؛ إذ كان الغربيون نفعيين فاستفادوا من زادنا ورمونا بالداء، ويرميهم أبناؤنا الجامدون في زماننا هذا بالداء والدواء..

وفي السياق يذكر الأمير أرسلان رحمه الله أن العرب وبشهادة غربيين كانوا إبان العصور الوسطى أساتذة الغربيين، وكان هؤلاء يعتبرون تخرجهم على يد أساتذة عرب مصدر تباهي وفخار، بل حين سئل الفيلسوف والكاتب الفرنسي فولتير عن لوتر وكالفين كمصلحين مسيحيين، قال كما ذكر ذلك أرسلان: "كلاهما لا يصلح أن يكون حذاء لمحمد".

إن دينا الذي أعطى المدنية القديمة معناها الحضاري الراقي سلما وحربا، وزودها بكوكبة عظيمة من العلماء والمفكرين والفقهاء المتنورين؛ لأجدر أن يظل المنارة لكل المدنيات التي استنسخت علومه وحضارته، وأجدر أكثر بأبنائه من المثقفين المسلمين أن يستعيدوا ثقتهم بقدرته على قيادة شعوب العالم.

لقد كان من معالم الهجرة النبوية المباركة تثبيت ساريتين عملاقتين ستسندان البناء الإسلامي في عز امتداده، وتسطر خطوات تقدمه وتألقه وهما: الصلاة والأخوة.. بناءان حاسمان في عودة الخيرية والوحدة الإسلامية الشريدة. الصلاة لأنها توثق خيوط المعية مع الله سبحانه؛ إذ تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتمتن حبل العلاقة معه، والأخوة لأنها تغزل نسيج المحبة والتآزر بين المسلمين، وتقيم معالم البنيان المرصوص وترفعه عاليا بين الأمم المتلمذة عليه كما فعل رجالها ونساؤها الذين صدقوا الله ما عاهدوه عليه بالأمس، قبل أن يشتد ساعد التلاميذ ويرمون الدين الإسلامي والخوالف بنبال الجحود السامة.

يقظة من سنة

ذة. رجاء عبيد

يقطع فلاة قاحلة جرداء، يلفح لظى الحر فيها شغاف قلبه، ويطيش لبه التائه فيها لجهله وجهة المسير، فيطول سيره بزاده القليل وقد حجبت عنه موارد الإمداد.

أوبقته ذنوبه وألقاه جهله في غيابة جب حف قعره بغوامض الآفات، واكتنفته ظلمات ثلاث: ظلمة العوائد وظلمة العوائق وظلمة العلائق؛ عوائد استحكمت فأسرت منه الإرادة وتصدرت السيادة، وعلائق أفرغت القلب من سواها فأعتمت البصيرة، وعوائق ابطأته عن النهوض وخلفته عن ركب السائرين. فتحالف ثلاثتهم في الختم على سمعه وبصره وفؤاده.

فلطالما أغشت غاشية الظلمة بصيرته فتراءت له ماهية الفلاة جنة غناء فعشق زخارفها الزائفة ووطن قلبه على حبها ومنى نفسه بمباهجها السراب، وطامن لها ظهره معلنا خنوعه بعدما أثقلته صخور الفتن وحجارة الزلات. ولكم أضاع من كثير سعيه في متاهات الحياة.

يتساءل بقلب شغوف للخلاص: كيف السبيل للنجاة من ضيق هذا الجب وظلمته؟ هل أستسلم فأوارى في أجداث الصدود والنسيان؟ أم أعلنها قومة صلاح واستقامة عل وارد الامتنان يدلي دلو اليقظة؟

يقف منتصبا ممشوقا بهامته يتطلع لبصيص النور الذي يخترق الظلمات، وفي لحظة تصاف مع نفسه تنفس صبحه بنور اليقين فتذكر قصة الفرس الذي كبر سنه وظهر عجزه، فقرر صاحبه أن يقذفه في بئر جف ماؤه، فاتفق وأهل قريته أن يلقوا نفاياتهم في البئر حتى يدفن الفرس تحتها، لكن الفرس لم ييأس من النجاة، ولم يستسلم للسلبية والقنوط، فكان كلما ألقى أهل القرية أزبالهم ووقعت على ظهره انتفض ليجعلها تحت قدمه، وركبها إلى أن خرج من بئر الظلمات، جعل أثقاله مطية لركوبها ورفض أن تركبه، ففرح به صاحبه وأكرمه حتى موته، وتعجب من صموده ونشاط همته.

صرح حبيس الجب بأعلى صوته، ورددت الجدران صداه: ألم تبلغ همتي همة الفرس؟ فرس لم يبث في أوصاله اليأس بعدما حكم عليه صاحبه بالموت، فلجأ إلى التخطيط والتدبير والتنفيذ، فكيف ييأس من ربه صاحب الأمر والتدبير.

أما آن لي أن أقهر وارد الغفلة والتيه، أما آن أن أجعل الاستفادة من زلاتي مرقاة لأفق مبين تنجلي عنه الحجب والأستار ويفتح فيه باب الاستبصار، وتبدل فيه السيئات بالحسنات.

إن كان صاحب الفرس قد ألقاه في البئر بعدما عجز وكبر سنه، فقد ألقاني عجز إرادتي وكبر جنايتي في بئر الهم والحزن، وتضافر التقاعس والعجز والكسل في إلقاء أثقالهم على همتي.

أفما آن لي أن أنتفض لتتساقط حمولاتهم عن ظهر عزيمتي، فاجعل أطيافهم تحت قدمي لأرتقي وأصعد سلم النجاة. فيفرح برجوعي ربي كما فرح صاحب الفرس بفرسه.

وقف خائفا متضائلا تحت الهيبة والتعظيم يناجي ربا عظيم المن، أنقذ يوسف من ظلمات البئر أن ينقذ روحه الولهى ونفسه المفتقرة إلى رحمة من خلقها ليلهمها رشدها وتقواها.

تجلى عليه ربه بالهداية، وأجاب دعوته، فألهمه رشده، ووصله بحبله الممدود من السماء وفتح عليه باب الاستبصار لآيات القرآن الكريم، فتلى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾.

فأجاب: بلى آن يا ربي... آن يا ربي...

فكان ممن حظي بالاعتبار، وجعلت له قصص الصالحين ملهمات للاستقامة، فلم ينس قط تجليات الآية الكريمة على نفسه وهمته فآثر أن يقاسمنا ما كان له موقظا من غاشية الغفلة، فقال: مما كان لآية بالغ الأثر عليه الفضيل بن عياض: فقد كان الفضيل بن عياض لصاً يقطع الطريق، وكان سبب توبته أنه عشق جارية، فبينما هو يرتقي الجدران إليها، إذ سمع تالياً يتلو: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ فلما سمعها قال: بلى يا رب! قد آن. فرجع فآواه الليل إلى خربة، فإذا فيها قافلة، فقال بعضهم: نرحل. وقال بعضهم: حتى نصبح؛ فإن فضيلاً على الطريق يقطع علينا. قال: ففكرتُ وقلت: أنا أسعى بالليل في المعاصي، وقوم من المسلمين ها هنا يخافوني؟ وما أرى الله ساقني إليهم إلا لأرتدع، اللهم إني قد تبت إليك، وجعلت توبتي مجاورة البيت الحرام".

فرغم تيه نفس الفضيل وطغيانها، وسجنه لها في بئر المعصية، فإن الله ﷻ جعل خلاصها على يد بعض السيارة من السالكين إليه فأعتقها من ربقها، وآتاها تقواها، فصلحت توبته بحبل من الله وهب لفضيل طرفه ليتشبث به في الأرض.

فكما خلص الله الفضيل بصدق إخلاصه وتدبره، فقد أنقذني ربي من غفلاتي بقرع آياته لمسامعي، وإيقاظها لجبلة فطرتي من سنتها.

رمضة

حضور.. غياب!

العيد من أجمل المناسبات للم الشمل والفرح...!
ينتظر الوالدان بشوق غامر أبناءهما وأحفادهما...
يرتبان كل التفاصيل للاحتفال بالعيد في أحسن الأجواء وإسعاد الأبناء...
يتبادلان النظرات الحيرى المتسائلة وهما يجالسان فلذات كبديْهما...
جلسات باردة بلا حميمية.. يتكلمان.. يسألان.. الصمت سيد الموقف.. أحيانا يتلقيان جوابا بإيماءات رأس باردة أو بكلمات مقتضبة دون النظر إليهما... يكتمان الحسرة والألم...
أسر الأب إلى الأم بعينين دامعتين:
. افتقدنا أبناءنا.. وكأننا نتحدث مع تماثيل جامدة..!
تضاحكت وهي تغالب دمعها:
. الحمد لله أننا نراهم بيننا بعد غياب طويل...!
غمغم بأسى:
. لا ينظرون إلينا.. لا يتبادلون الحوار معنا.. لا يعيروننا اهتماما.. لا يسمعوننا.. آذانهم مغلقة بالسماعات.. كل واحد منهم يمسك بهاتفه مستغرقا في الإبحار في عالم آخر... حتى أحفادنا.. كم أحن إلى لعبهم وجلبتهم في البيت، إلى جلوسهم في حضني.. إلى كلماتهم البريئة...!
غلبها دمعها وهي تتبسّم:
. يا رجل هذا عصر آخر.. وما علينا سوى مجاراتهم!
قرر أن يفتح معهم الحوار مرة أخرى.. توجه إليهم:
. أرجوكم . أحبتي . امنحونا وقتا واهتماما بعيدا عن هذه الأجهزة...!
انتظر طويلا ردات فعلهم... لكنهم كانوا أمامه غائبين تماما في عالم آخر...!

بقلم:
ذة. نبيلة عزوزي

آيات الصدقات

أ.د. عبد الرحيم الرحموني

1 - في إخفاء الصدقات وإظهارها:

قال الله تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (البقرة: 270).

قال ابن القيم رحمه الله مبينا فضل إخفاء الصدقات ومزية إظهارها: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾ أي فنعم شيء هي، وهذا مدح لها موصوفة بكونها ظاهرة بادية، فلا يتوهم مبديها بطلان أثره وثوابه، فيمنعه ذلك من إخراجها، وينتظر بها الإخفاء، فتفوت أو تعترضه الموانع ويحال بينه وبين قلبه، أو بينه وبين إخراجها. فلا يؤخر صدقته العلانية بعد حضور وقتها إلى وقت السر، وهذه كانت حال الصحابة.

ثم قال: ﴿وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ فأخبر أن إعطاءها للفقير في خفية خير للمنفق من إظهارها وإعلانها..

وتأمل تقييده تعالى الإخفاء بإيتاء الفقراء خاصة، ولم يقل: وإن تخفوها فهو خير لكم، فإن مَنّ الصدقة ما لا يمكن إخفاؤه كتجهيز جيش، وبناء قنطرة، وإجراء نهر، أو غير ذلك.

وأما إيتاؤها الفقراء ففي إخفائها من الفوائد: الستر عليه وعدم تخجيله بين الناس وإقامته مقام الفضيحة، وأن يرى الناس أن يده هي اليد السفلى، وأنه لا شيء له فيزهدون في معاملته ومعاوضته. وهذا قدْر زائد عن الإحسان إليه بمجرد الصدقة، مع تضمنه: الإخلاص، وعدم المراءاة وطلب المَحمَدة من الناس، وكان إخفاؤها للفقير خيرا من إظهارها بين الناس.

ومن هذا مدح النبي ﷺ صدقة السر وأثنى على فاعلها، وأخبر أنه أحد السبعة الذين هم في ظل عرش الرحمن يوم القيامة. ولهذا جعله سبحانه خيرا للمنفق، وأخبر أنه يكفر عنه بذلك الإنفاق من سيئاته. ولا يخفي عليه سبحانه أعمالكم ولا نياتكم. فإنه بما تعملون خبير.

ثم أخبر أن هذا الإنفاق إنما نفعه لأنفسهم، يعود عليهم أحوج ما كانوا إليه، فكيف يبخل أحدكم عن نفسه بما نفعه مختص بها عائد إليها؟

وإن نفقة المؤمنين إنما تكون ابتغاء وجهه خالصا. لأنها صادرة عن إيمانهم، وإن نفقتهم ترجع إليهم وافية كاملة. ولا يظلم منها مثقال ذرة.

وصدّر هذا الكلام بأن الله هو الهادي الموفق لمعاملته وإيثار مرضاته وأنه ليس على رسوله هداهم. بل عليه إبلاغهم. وهو سبحانه الذي يوفق من يشاء لمرضاته.

2 - في إتباع الصدقات بالمَنِّ والأذى:

قال الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلا أَذىً لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: 261)

قال ابن القيم رحمه الله:

هذا بيان للقرض الحسن ما هو إشارة إلى قوله تعالى قبل ذلك: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ (البقرة: 243)، وهو أن يكون في سبيله، أي في مرضاته، والطريق الموصلة إليه؛ ومن أنفعها سبيل الجهاد، وسبيل الله خاص وعام، والخاص جزء من السبيل العام، وأن لا يتبع صدقته بمن ولا أذى، فالمنُّ نوعان.

أحدهما: منٌّ بقلبه من غير أن يصرح له بلسانه وهذا إن لم يبطل الصدقة فهو من نقصان شهود منّة الله عليه في عطائه المال وحرمان غيره، وتوفيقه للبذل ومنع غيره منه، فللّه المنّة عليه من كل وجه. فكيف يشهد قلبه منّةً لغيره؟.

والنوع الثاني: أن يَمُنّ عليه بلسانه فيعتدي على من أحسن إليه بإحسانه ويريه أنه اصطنعه وأنه أوجب عليه حقا وطوقه منة في عنقه فيقول: أما أعطيتك كذا وكذا؟ ويعدد أياديه عنده. قال سفيان: يقول: أعطيتك فما شكرت. وقال عبد الرحمن بن زياد: كان أبي يقول: إذا أعطيتَ رجلا شيئا ورأيت أن سلامك يثقل عليه فكفّ سلامك عنه. وكانوا يقولون: «إذا اصطنعتم صنيعة فانسوها، وإذا أسدى إليكم صنيعة فلا تنسوها»، وفي ذلك قيل:

وإنّ امْرَأً أهْدى إلَيّ صنيعةً
وذكَّرَنيها مرَّةً لَبَخيلُ

وقيل: صنوان؛ مَنْ مَنَحَ سائلَه ومَنّ، ومن مَنَع نائلَه وضَنّ.

وحظر الله على عباده المنّ بالصنيعة، واختص به صفةً لنفسه، لأنه منّ العباد تكدير وتعيير، ومن الله سبحانه وتعالى إفضال وتذكير.

وأيضا فإنه هو المنعم في نفس الأمر، والعباد وسائط، فهو المنعم على عبده في الحقيقة، وأيضا فالامتنان استعباد وكسر وإذلال لمن يُمَنّ عليه، ولا تصلح العبودية والذل إلا لله.

وأيضا فالمنة أن يشهد المعطي أنه هو رب الفضل والإنعام، وأنه ولي النعمة ومسديها، وليس ذلك في الحقيقة إلا لله.

وأيضا فالمانّ بعطائه يشهد نفسه مترفعا على الآخذ، مستعليا عليه غنيا عنه عزيزا، ويشهد ذل الآخذ وحاجته إليه وفاقته ولا ينبغي ذلك للعبد.

وأيضا فإن المعطي قد تولى الله ثوابه، وردّ عليه أضعاف ما أعطى فبقي عوض ما أُعطيَ عند الله. فأي حق بقي له قبل الآخذ؟ فإذا امتن عليه فقد ظلمه ظلما بيِّنا، وادعى أن حقه في قبله.

ومن هنا -والله أعلم- بطلت صدقته بالمنّ؛ فإنه لما كانت معاوضته ومعاملته مع الله، وعوض تلك الصدقة عنده، فلم يرض به، ولاحظ العوض من الآخذ والمعاملة عنده، فمَنّ عليه بما أعطاه، أبطل معاوضته مع الله ومعاملته له.

فتأمل هذه النصائح من الله لعباده ودلالته على ربوبيته، وإلهيته وحده، وأنه يبطل عمل من نازعه في شيء من ربوبيته، وإلهيته لا إله غيره، ولا رب سواه.

ونبّه بقوله: ﴿ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ ما أَنْفَقُوا مَنًّا وَلا أَذىً﴾ على أن المن والأذى -ولو تراخى عن الصدقة وطال زمنه- ضر بصاحبه، ولم يحصل له مقصود الإنفاق. ولو أتى بالواو، وقال: ﴿ولا يتبعون ما أنفقوا منّا ولا أذى﴾ لأوهمت تقييد ذلك بالحال. وإذا كان المنّ والأذى المتراخي مبطلا لأثر الإنفاق، مانعا من الثواب، فالمقارَن أولى وأحرى.

وتأمل كيف جرد الخبر هنا عن الفاء فقال: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، وقرَنَه بالفاء، في قوله تعالى:

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فإن الفاء الداخلة على خبر المبتدأ الموصول أو الموصوف؛ تفهم معنى الشرط والجزاء، وأنه مستحق بما تضمنه المبتدأ من الصلة أو الصفة. فلما كان هنا يقتضي بيان حصر المستحق للجزاء دون غيره، جرد الخبر عن الفاء، فإن المعنى أن الذي ينفق ماله لله، ولا يمن ولا يؤذي، هو الذي يستحق الأجر المذكور لا الذي ينفق لغير الله، ويمُنّ ويؤذي بنفقته. فليس المقام مقام شرط وجزاء. بل مقام بيان للمستحق دون غيره.

وفي الآية الأخرى ذكر الإنفاق بالليل والنهار سرا وعلانية. فذكر عموم الأوقات وعموم الأحوال، فأتى بالفاء في الخبر ليدل على أن الإنفاق في أي وقت وُجد من ليل أو نهار، وعلى أي حالة وُجد من سر وعلانية؛ فإنه سبب الجزاء على كل حال، فليبادر إليه العبد ولا ينتظر به غير وقته وحاله، ولا يؤخر نفقة الليل إذا حضر إلى النهار، ولا نفقة النهار إلى الليل، ولا ينتظر بنفقة العلانية وقت السر، ولا بنفقة السر وقت العلانية، فإن نفقته في أيّ وقت وعلى أي حال وجدت سبب لأجره وثوابه.

فتدبر هذه الأسرار في القرآن فلعلك تظفر بها إذ تمر بك في التفاسير. والمنّة والفضل لله وحده لا شريك له.

وقال القرطبي رحمه الله في الآية ذاتها:

الثَّانِيَةُ: لَمَّا تَقَدَّمَ فِي الْآيَةِ الَّتِي قَبْلُ ذِكْرُ الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَلَى الْعُمُومِ بَيَّنَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ ذَلِكَ الْحُكْمَ وَالثَّوَابَ إِنَّمَا هُوَ لِمَنْ لَا يُتْبِعُ إِنْفَاقَهُ مَنًّا وَلَا أَذًى، لِأَنَّ الْمَنَّ وَالْأَذَى مُبْطِلَانِ لِثَوَابِ الصَّدَقَةِ كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ بَعْدَ هَذَا، وَإِنَّمَا عَلَى الْمَرْءِ أَنْ يُرِيدَ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى وَثَوَابَهُ بِإِنْفَاقِهِ عَلَى الْمُنْفَقِ عَلَيْهِ، وَلَا يَرْجُو مِنْهُ شَيْئًا وَلَا يَنْظُرُ مِنْ أَحوال فِي حَالٍ سِوَى أَنْ يُرَاعِيَ اسْتِحْقَاقَهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً﴾. وَمَتَى أَنْفَقَ لِيُرِيدَ مِنَ الْمُنْفَقِ عَلَيْهِ جَزَاءً بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ فَهَذَا لَمْ يُرِدْ وَجْهَ اللَّهِ، فَهَذَا إِذَا أَخْلَفَ ظَنَّهُ فِيهِ مَنَّ بِإِنْفَاقِهِ وَآذَى. وَكَذَلِكَ مَنْ أَنْفَقَ مُضْطَرًّا دَافَعَ غُرْمٍ إِمَّا لِمَانَّةٍ لِلْمُنْفَقِ عَلَيْهِ أَوْ لِقَرِينَةٍ أُخْرَى مِنَ اعْتِنَاءٍ مُعْتَنٍّ فَهَذَا لَمْ يُرِدْ وَجْهَ اللَّهِ. وَإِنَّمَا يُقْبَلُ مَا كَانَ عَطَاؤُهُ لِلَّهِ وَأَكْثَرُ قَصْدِهِ ابْتِغَاءَ مَا عِنْدَ اللَّهِ. كَالَّذِي حُكِيَ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ أَنَّ أَعْرَابِيًّا أَتَاهُ فَقَالَ:

يَا عُمَرَ الْخَيْرِ جُزِيتَ الْجَنَّهْ
اكْسُ بَنَيَّاتِي وَأُمَّهُنَّهْ
وَكُنْ لَنَا مِنَ الزَّمَانِ جُنَّهْ
أُقْسِمُ بِاللَّهِ لَتَفْعَلَنَّهْ

قَالَ عُمَرُ: إِنْ لَمْ أَفْعَلْ يَكُونُ مَاذَا؟ قَالَ:

إِذَنْ أَبَا حَفْصٍ لَأَذْهَبَنَّهْ

قَالَ: إِذَا ذَهَبْتَ يَكُونُ مَاذَا؟! قَالَ:

تَكُونُ عَنْ حَالِي لَتُسْأَلَنَّهْ
يَوْمَ تَكُونُ الْأُعْطِيَاتُ هَنَّهْ
وَمَوْقِفُ الْمَسْؤُولِ بَيْنَهُنَّهْ
إِمَّا إِلَى نَارٍ وَإِمَّا جِنَّهْ

فَبَكَى عُمَرُ حَتَّى اخْضَلَّتْ لِحْيَتُهُ ثُمَّ قَالَ: يَا غُلَامُ، أَعْطِهِ قَمِيصِي هَذَا لِذَلِكَ الْيَوْمِ لَا لِشِعْرِهِ! وَاللَّهِ لَا أَمْلِكُ غَيْرَهُ.

قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ: وَإِذَا كَانَ الْعَطَاءُ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ خَالِيًا مِنْ طَلَبِ جَزَاءٍ وَشُكْرٍ وَعُرْيًا عَنِ امْتِنَانٍ وَنَشْرٍ كَانَ ذَلِكَ أَشْرَفَ لِلْبَاذِلِ وَأَهْنَأَ لِلْقَابِلِ. فَأَمَّا الْمُعْطِي إِذَا الْتَمَسَ بِعَطَائِهِ الْجَزَاءَ، وَطَلَبَ بِهِ الشُّكْرَ وَالثَّنَاءَ، كَانَ صَاحِبَ سُمْعَةٍ وَرِيَاءٍ، وَفِي هَذَيْنِ مِنَ الذَّمِّ مَا يُنَافِي السخاء. وَإِنْ طَلَبَ كَانَ تَاجِرًا مُرْبِحًا لَا يَسْتَحِقُّ حَمْدًا وَلَا مَدْحًا. وَقَدْ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ أي لا تعطي عَطِيَّةً تَلْتَمِسُ بِهَا أَفْضَلَ مِنْهَا.

بنبض القلب

في القلب... في النفس... في الضمير

- أسوأ ما في القلب، أن يمتلئ حقدا على الخلق، وأن تصيبه جرثومة الكراهية تجاه ما هو إنساني وجميل، وأن يهجره الإيمان حتى يغشاه الران ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (المطَفِّفون: 14).

- أسوأ ما في الضمير أن ينام مرتاحا، وقد نكل صاحبه بالعباد، سافكا دم هذا، وآكلا مال هذا، غير عابئ بالأضرار المادية والنفسية التي يلحقها بالغير وبالدمار الذي يعيثه في المجتمع.

- أسوأ ما في النفس، أن يغلب فجورها تقواها، وأن تنأى عن دائرة التزكية، وتخوض في وحل الدسيسة، حتى تغرق في الآثام وتغدو طريق العودة غير سالكة ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (الشمس: 7 - 10).

- والأسوأ من ذلك كله، أن لا يستشعر المرء إصابته بهذه الأدواء، وأن يزين له الشيطان طريق الضلال، فيختلط له الحابل بالنابل حتى يرى الغي سبيلا للرشاد ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (الكهف: 103-104).

أيها الإنسان، عالج نفسك بالإيمان، واكسب مناعتك بالتقوى، إن القلب الذي بين جنبيك ليس ملكا لك، بل ملكا للرحمان يقلبه كيف يشاء.

فاللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوب عبادك على دينك... آمين.

ذ: أحمد الأشهب

8 طلبات لفتح بنوك إسلامية في المغرب

قال والي البنك المركزي المغربي، عبد اللطيف الجواهري، يوم الثلاثاء الماضي، إن البنك استقبل 8 طلبات لفتح بنوك إسلامية في البلاد.

وأوضح الجواهري، خلال مؤتمر صحفي في الرباط، أن الطلبات جاءت من بنوك مغربية وأجنبية وأخرى تضم شراكة بين مصارف أجنبية ومغربية.

ونفى والي البنك وجود ضغط من جانب البنوك التجارية أو أية جهات أخرى، لعرقلة دخول البنوك الإسلامية لبلاده، مضيفا "البنوك الإسلامية بحاجة إلى صكوك من أجل الاستفادة من السيولة المالية التي يقدمها البنك المركزي.. نحن في البنك نعمل بالتنسيق مع وزارة المالية لتوفير الصكوك".

وفاة مقرئ المسجد الأقصى والمسجد الإبراهيمي الشيخ محمد رشاد الشريف

توفي ظهر يوم الثلاثاء، بالعاصمة الأردنية عمان، الشيخ محمد رشاد الشريف، مقرئ المسجد الأقصى المبارك والمسجد الإبراهيمي، إمام وقارئ الأذان الموحد لمسجد الملك عبد الله عن عمر ناهز 90 عامًا. وسيشيع جثمان الفقيد بعد صلاة ظهر اليوم الثلاثاء من مسجد الملك عبد الله الأول في العبدلي، ثم إلى مقبرة الصويلح بعمان، حسب نجله.

ويعد رشاد الشريف عالمًا من أعلام الأمة الإسلامية، وأحد أشهر قرائها، فقد كان يمتلك خامة صوتية مميزة، جعلت منه إمامًا ومقرئاً للمسجد الأقصى المبارك. بدأ الشريف بتعلم الترتيل صغيراً، فقرأ القرآن الكريم على الشيخ حسين علي أبو سنينة وأجازه بروايتي حفص عن عاصم وورش، حتى أتقن القراءة القرآنية في سن الثامنة عشرة متأثرا بقراءة المقرئ محمد رفعت.

وفي العام 1943، استمع إلى محمد رشاد الشريف شيخ القراء في القرن العشرين، المقرئ محمد رفعت وكان كفيفاً، فقال عنه "إنني استمع إلى محمد رفعت من فلسطين"، وليرد له برسالة في العام 1944 معتبراً إياه بمثابة "محمد رفعت الثاني".

عيّن كقارئ للمسجد الأقصى عام 1966، وكان يقرأ فيه جمعة بعد جمعة، لأنه كان أيضاً يقرأ في الحرم الإبراهيمي في الخليل.

الشيخ رشاد انتقل للعيش في الأردن منذ عام 2002 وكان يؤم بمسجد الملك عبد الله المؤسس بالعبدلي وهو حاصل على شهادة الماجستير في علوم القرآن.

المغرب يعرض تجربته في التسامح بـ "مؤتمر وارسو"

تم بالعاصمة البولونية وارسو عرض التجربة المغربية في مجال التسامح ومحاربة التمييز أمام المشاركين في أشغال اجتماع مكتب المؤسسات الديمقراطية وحقوق الإنسان التابع لمنظمة الأمن والتنمية، وهو أكبر موعد سنوي لحقوق الإنسان في أوربا.

وأكد سفير المغرب بوارسو، يونس التيجاني، أن المغرب الشريك المتوسطي لمنظمة الأمن والتعاون في أوربا اختار كنهج ثابت اعتماد السلم والاستقرار ومحاربة العنصرية وكراهية الأجانب والتمييز بمختلف أشكاله، وذلك بفضل رؤية متبصرة تستهدف بناء مجتمع مغربي تعددي وموحد، يولي أهمية كبرى لمختلف روافده العربية الإسلامية والأمازيغية واليهودية والحسانية والأندلسية والتي تعد جميعها مصدر وحدته وفخره وتجانسه.

وذكر التيجاني أن القانون المغربي يجرم مختلف أشكال التمييز، مذكرا بالعملية الاستثنائية الكبرى التي نفذتها المملكة لتسوية أوضاع المهاجرين الأجانب في وضع غير قانوني وهي العملية التي همت 23 ألف شخص.

وأشار إلى أن ثلاثة مشاريع قوانين ذات الصلة باللجوء والهجرة ومحاربة الاتجار في البشر تم إعدادها لتنفيذ السياسة المغربية الجديدة في مجال الهجرة واللجوء وضمان الاندماج الكامل للمهاجرين وحمايتهم.

وأوضح أن المغرب أقر قوانين تحظر وصلات إعلامية أو إشهارية ذات حمولات تمييزية حسب الجنس أو الدين أو العرق، كما تمنع قوانين الصحافة المغربية كل ما قد يحرض على التمييز العنصري، مبرزا الدور المتنامي للمجتمع المدني في تقوية وترسيخ المكتسبات المحققة في المجال.

UNITED NATIONS
CLIMATE CHANGE CONFERENCE
COP19/CMP9
WARSAW 2013

كولومبيا : رفع الأذان والصلاة لأول مرة داخل جامعة فاليدوبار

استمرارًا للعمل الدعوي في جامعات مدينة فاليدوبار – كولومبيا، استطاعت قافلة الفاروق الدعوية – التابعة لمركز (أبو بكر الصديق الإسلامي) في مدينة فاليدوبار – الحصول على تصريح رسمي من إحدى الجامعات لرفع الأذان، وإقامة الصلاة على الملأ، وسط ذهول لطلاب الجامعة.

وهو ما يعد أول سابقة من نوعها في جامعات مدينة فاليدوبار، وكان قد سبق هذا الأمر إقامة المركز لملتقى دعوي بالجامعة نفسها، وقد أدَّت دورها بشكل فعَّال كما أفاد بذلك "الشيخ محمد مطر" مسؤول قافلة الفاروق، ونجحت الحملة وقتئذٍ في الإجابة على كافة الأسئلة المطروحة من طلاب الجامعة.

البرلمان السويسري يوافق على منع النقاب

جنيف (إينا) – وافق النواب السويسريون بغالبية بسيطة، يوم الثلاثاء المنصرم، على منع النقاب، وهو مقترح تقدم به حزب "اتحاد الوسط الديموقراطي" (يمين شعبوي).

وبعد هذا التصويت، يجب أن ينال الاقتراح تأييد مجلس الولايات. وحظر النقاب موضوع مبادرة شعبية فدرالية قد تفضي إلى استفتاء في حال حصلت على التواقيع اللازمة (100 ألف توقيع حسبما ينص على ذلك القانون السويسري). وبعد جمع التواقيع يجب انتظار عامين لإجراء الاستفتاء، بحسب فرانس برس.

وشكل الناشطون الرافضون للنقاب لجنة وأطلقوا حملة تواقيع. وبحسب استطلاع للرأي نشرته في آب/اغسطس صحيفة "لو ماتان ديمانش" فإن 71 في المئة من السويسريين يؤيدون ذلك.

ويسمح بارتداء النقاب حاليا في جميع أنحاء سويسرا باستثناء كانتون تيشينو، الذي نظم قبل ثلاث سنوات استفتاء حول حظر النقاب أيده قسم كبير من الناخبين. ودخل الحظر حيز التنفيذ في الأول من تموز/يوليو، وأي انتهاك لهذا القانون يعاقب عليه بغرامة لا تقل عن 90 يورو.

ومنذ مطلع تموز/يوليو تم إصدار غرامات عدة في تيشينو، حيث أطلقت حملة إعلامية واسعة موجهة إلى السياح من الشرق الأوسط.

ويبلغ عدد سكان سويسرا ثمانية ملايين نسمة، بينهم 300 ألف

لاعب المان سيتى السابق جيريمى هيلان يعتزل اللعب ويكرس حياته للإسلام

ينوي جيريمي هيلان لاعب فريق شيفيلد وينزداى الذى ينافس فى دوري الدرجة الأولى الإنجليزي "شامبيونشيب" اعتزال كرة القدم من أجل تكريس حياته للدين الإسلامي.

وفقا لشبكة "سكاي سبورتس" الإنجليزية فإن هيلان أبلغ إدارة ناديه شيفيلد الأسبوع الماضي بنيته فى اعتزال كرة القدم بالرغم من أنه لا يزال فى سن الـ24، من أجل تكريس حياته للتعبد والتعرف أكثر على الدين الإسلامي، مع العلم أن عقده الحالي ينتهي بنهاية الموسم.

ويعتزم هيلان السفر إلى السعودية من أجل تعلم الدين الإسلامي عن كثب خاصة أنه فرنسي متدين.

كان هيلان قد انضم لفريق شيفيلد في 2013 قادمًا من صفوف مانشستر سيتي الإنجليزي الذى قضى معه 5 سنوات لم يشارك خلالها إلا في مباراة واحدة منذ

الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين يدعو لنصرة أهل حلب

دعا الشيخ علي القره داغي، الأمين العام للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، الأمة الإسلامية والعربية والعالم الحر إلى "إعلان الغضب العالمي" يوم الجمعة القادم 30 سبتمبر تحت شعار "اغضب لحلب" السورية.

وقال القرة داغي، في بيان نشرته وكالة "الأناضول" الاثنين 25/ 09/ 2016م، إن تلك الدعوة تأتي "نصرة لمدينة حلب التي تباد على يد النظام السوري الفاشي وأعوانه أمام مرأى ومسمع من العالم، الذي لم يحرك قادته ساكناً سوى اجتماعات أممية لا تسمن ولا تغني من جوع .

وطالب القره داغي العلماء والخطباء والأئمة في العالم "أن يخصصوا خطبة الجمعة القادمة عن حلب ونضالها وصمودها في وجه الإبادة التي تتعرّض لها، وعن دور الأمة والعالم".

وبيّن أنه "على العلماء أن يكونوا في مقدمة صفوف جماهير الأمة الغاضبة والضغط من أجل رفع الظلم والقهر عن سوريا وغيرها من البلاد المكلومة والمدمرة".

ودعا الأمين العام للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين المجتمع الدولي إلى "إيقاف سياسة الكيل بمكيالين ورفع أي غطاء عن بشار الأسد ونظامه وأعوانه ودعم الشعب السوري في مسيرة تحرره"

لآلئ وأصداف

يلتقطها أ.د. الحسن الأمراني

عن التقويم أحدثكم

شطحات الدكتور محمد شحرور، وما كتبه عن القرآن والكتاب ناطق، وأن يستنجد برأي (المفكر نيازي عز الدين)، هو كالمستجير من الرمضاء بالنار.

التقويم الشمسي في العبادات، هل هو اجتهاد؟ فهو اجتهاد بغير علم. والدعوة إلى اعتماد التقويم الشمسي في العبادات، وإحياء النسيء، هل هي فتنة؟ فحسبنا ما تعانيه أمتنا من الفتن.

قال ابن إسحق: "ثم مضى رسول الله ﷺ على حجه، فأرى الناس مناسكهم، وأعلمهم سنن حجهم، وخطب الناس خطبته التي بيّن فيها ما بين، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «... أيها الناس، ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر، يضل به الذين كفروا، يحلونه عاما ويحرمونه عاما، ليواطئوا عدة ما حرم الله، فيحلوا ما حرم الله، ويحرموا ما أحل الله﴾ (التوبة: 37)، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض. وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا، منها أربعة حرم، ثلاثة متوالية، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان»" (متفق عليه).

وإنما قال ذلك لأن ربيعة كانت تحرم رمضان، وتسميه رجبا، فتعبث بمواقيت العبادة التي شرعها الله تعالى، فبين ﷺ أنه رجب مضر لا رجب ربيعة.

وليس هذا فقط، ولكن الذي ينبغي الالتفات إليه، هو قوله ﷺ: «وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض»، وذلك أن عبث الجاهليين جعل الشهور تتغير وتتزحزح عن مواضعها، فلما كان عهد رسول الله ﷺ كان الزمان قد استدار ورجع كل شهر إلى موضعه الذي وضعه الله فيه، واقتراح التقويم الشمسي للعبادات اعتداء على حرمات الله، حيث سيعبث بهذه الشهور مرة أخرى، وهذه المرة سيكون عبثا مقننا، بدعوى التيسير، فتؤدَّى العبادات في غير أوقاتها. ومتى يأتي من يقول لنا مرة أخرى: إن الزمان قد استدار؟

ثم إن الحكمة من اعتماد الشهور القمرية، أن المرء إذا اعتمدها وصام ثلاثة وثلاثين سنة، يكون قد صام كل أيام السنة، صيفا وشتاء، في الحر والقرّ، وفي ذلك من الحكمة ما لا يخفى.

ثم نسأل: هل غاب عن الرسول ﷺ وصحبه دلالة أسماء الشهور العربية؟ وهل غاب ذلك أيضا عن رب العزة، تعالى علوا كبيرا؟ فهو القائل سبحانه: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾.

وأن نجتهد في توحيد المطالع فلا بأس في ذلك، إذ كثيرا ما تتدخل السياسة، لا الدين، في ذلك، كما حدث كثيرا. فلو فرضنا مثلا أن بلدين دأبا على الصيام في وقتين مختلفين، ثم توحدا سياسيا، لاتفق وقت صيامهما. على أن هذا ليس مشكلا، وقوله ﷺ: «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته»، دال على جواز اختلاف المطالع، وقد كان المسلمون، حتى يوم كانوا أمة واحدة سياسيا، تختلف أقطارهم في المطالع، فمطلع أهل العراق غير مطلع أهل الشام، ومطلع أهل مصر غير مطلع أهل المغرب والأندلس، ثم لا ينكر بعضهم على بعض، وما ثبت أن فقهاء الخافقين اختلفوا في هذا، كما نختلف اليوم.

وأما القول بأنه من غير المعقول أن يصوم الناس 22 ساعة في بعض الأقطار، فالله تعالى يقول: ﴿ألا يعلم من خلق﴾؟ وإن الله تعالى أرحم بعباده ممن يزعم الرحمة، ولكن علينا بما أمرنا به ربنا ﷻ من التفكر، لا من التفكير، والفرق بينه كبير. ففي التفكير قال تعالى: ﴿إنه فكر وقدر فقتل كيف قدر﴾، وفي التفكر قال تعالى: ﴿قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا﴾، ولو صح اجتهاد هذا الرجل لاستنطق النصوص، ولعلم أن فقهاءنا حلوا هذه المشكلة وانتهوا فيها إلى ما يرضي العقل والشرع، وذلك في حديث رسول الله ﷺ: «اقدروا له»، وذلك عندما أخبرهم بقدوم أيام، يوم كيوم، ويوم كجمعة، ويوم كشهر، ويوم كسنة. فسأل سائل: أنصلي فيه صلاة واحدة يا رسول الله؟ فقال: «لا، ولكن اقدروا له». أي عندما يكون النهار توقيته غير مألوف، نقدر له في العبادات. ونحن نعلم اليوم أن في أقطار الأرض بلادا لا تغيب عنها الشمس ستة أشهر كاملة، فهل نعتبر هذه الشهور الستة يوما واحدا، فنصلي فيه صلاة واحدة، أي الصلوات الخمس مرة واحدة في ستة أشهر؟ الجواب في قوله ﷺ: «اقدروا له». وما قيل عن الصلاة يقال عن الصيام، فالذين يعيشون في هذه البلاد لا يمكنهم الصيام بشكل طبيعي، فهل يسقط عليهم الصيام؟ لا، ولكن «اقدروا له». قال بعض العلماء: يصومون القدر المنطقي، متابعة للبلد الذي يتفقون معه في خطوط الطول أو العرض، اجتهادا. وهكذا لا يكون هناك وصال في الصيام، بل يكون صيام بعدد ساعات يطيقها سكان ذلك الصقع. وما أحوجنا إلى الاجتهاد المبني على العلم، واستحضار كل النصوص والوقائع، والله الموفق الهادي إلى صراط مستقيم.

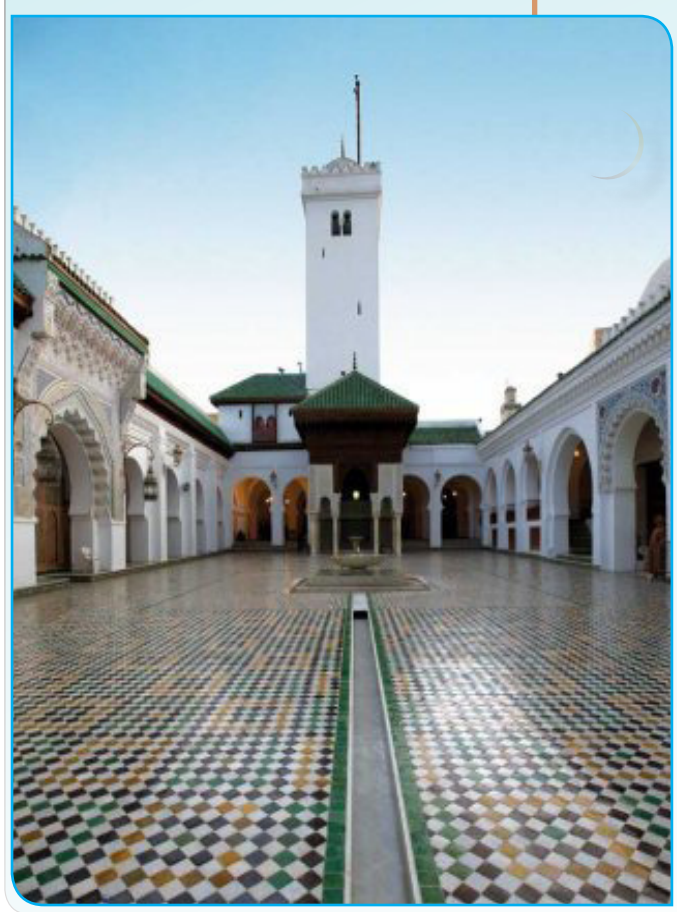

إلى أن نلتقي

تحية لهؤلاء، ورحمة على أولئك

مع انطلاق السنة الدراسية الجديدة وما يثيره هذا الانطلاق من أحاديث وإعلامات وإعلانات ذات شجون، يتوقف العاقل الحصيف، والمتتبع المتذكر ليوجه التحية إلى جنود الخفاء والعلن، إلى المدرسين والأساتذة الذين اختاروا مهنة التدريس والتعليم وهم يدركون بحق أهميةَ التعليم والتربية، ودورَهما في البناء الحضاري.

تحية لهم حين اختاروا هذه المهنة، وهم يعرفون أنها حقا هي مهنة المتاعب، لا غيرها، وخاصة في زماننا هذا.

تحية لهم حينما قدموها على غيرها، لا لأنهم لم يجدوا غيرَها. وفضلوها على غيرها رغم مشاقها وعِظم الأمانة فيها، وشرف الانتماء إليها، ولم يتخذوها مجالا للارتزاق، ولم يوظفوها لعصر جيوب الآباء بالساعات الإضافية وغير الإضافية.

تحية لهم داخل الحواضر بزحامها وضجيجها وصخبها، وفي أطراف القرى والبوادي ببعدها ونأيها، وصعوبة التنقل إليها.

تحية لهم وهم يدركون أن التربية هي قوامُ المجتمع، والأساسُ المتين لبنائه وتقدمه وتطوره.

تحية لهم وهم يَعُونَ أنهم مربون لفلذات أكبادنا، ويبذلون في ذلك الغالي والنفيس، من أجل أن يكون أبناؤنا قارئين، وأن يكونوا عمادَ المستقبل ورجالَه.

تحية لهم وهم يدركون أن القسم الذي يُلقى فيه الدرس داخل المؤسسة التعليمية هو مجالٌ للعمل التعليمي والتربوي، مع التفاني في ذلك مهما كلف من ثمن، وليس فضاءً للقيل والقال، وقصّ النكت والسير الذاتية، فضلا عن تقشير البطاطس والجلبان وما شابه ذلك، مما يبدو فيه تصحيح الفروض من قِبَل المدرس وتكليفه التلاميذ بإلقاء الدروس بدلا منه عملا ملائكيا.

تحية لهم وهم يأخذون بيد الضعيف حتى يستوي عوده، ويأخذون على يد المشاغب بالتي هي أحسن حتى يعود إلى رشده.

تحية لهم وهم يعلّمون بالعبرة، ويربون بالقدوة، حتى ولو لم يتكلموا بأي كلمة.

تحية لهم وهم يعدّون أن أول حافز لهم على بذل المزيد هو براءةُ تلامذتهم وحرصُ هؤلاء التلاميذ على التعلُّم، أما الترقيات فأمر مُلحق، وأما المديح الزائف فلا شأن لهم به.

تحية لهم وهو لا يخشون لا مديرا ولا مفتشا ولا أي مراقب، وإنما يخشون خالقهم قبل أي أحد من هؤلاء؛ ضمائرهم حية، وقلوبهم يقظة، وإيمانهم قوي بشرف المهمة التي يؤدونها والمهنة التي يزاولونها.

تحية لهم وهم يأخذون بكل ما هو نافع ومفيد من الأسباب التربوية والأساليب التدريسية والمناهج البيداغوجية، بغية الارتقاء بالعملية التدريسية، وتيسير التلقي على الأبناء المتعلمين.

تحية لهم وهم يستزيدون من مجال العلم ويغترفون من بحره، معتقدين أن المعلم مهما علا شأنه يبقى متعلما، فنحن أبناء أمة تؤمن أن طلب العلم مستمر من المهد إلى اللحد.

تحية لهم وهم يشعرون أنهم غرباء أو كالغرباء في زمن طغا فيه سلطان المادة بشكل كبير، وتضاربت فيه المصالح الذاتية، وطفا فيه على السطح كل غثاء، وخبا فيه الشعور بالمسؤولية، وانطفأ فيه الإحساس بالوطنية الحقة.

تحية لهم وشعارهم قبل هذا وبعد هذا كله، أنهم "يأكلون الخبز الحلال"، بأداء واجبهم كما ينبغي، قانعين بما رزقهم الله. لا تمتد أعينهم إلى ما في جيوب تلامذتهم أو جيوب آبائهم، ولا يحتالون للوصول إليها أو إلى غيرها، مهما كان الحال.

تحية إلى رجال التعليم، ذكورا وإناثا، في زمن قلَّ فيه الرجال، رجال التعليم الذين ساروا على نَهج السلف الصالح من المعلمين والمربين، الذين صدق فيهم قول الشاعر: "كاد المعلم أن يكون رسولا"، فبنوا العقول قبل الأجسام، وكوَّنوا الأنفس قبل الأجساد...

فتحية إلى هؤلاء، العاضين بنواجذهم على ما تبقى من مبادئ وقيم في مجال التربية والتعليم، ورحمة على أولئك السلف الذين كانوا كهؤلاء، بل وأكثر من هؤلاء، لأنهم عاشوا في زمن لم يؤتوا ما أوتينا من رفاهية وسائل التواصل، ورغد التكنولوجيا، وتقدم الرقميات؛ فكل ما كانوا يملكونه طباشير أبيض، وسبورة سوداء، وريشة بين أنامل تلاميذهم، الذين هم أيضا لم تكن محافظهم تزيد على دفتر وكتاب، وأحيانا لوحة صغيرة، تعاقبت عليها وعلى الكتاب أجيال وأجيال.

رحمهم الله تعالى رحمة واسعة، وبارك في أعمار من بقي منهم ورزقهم الصحة والعافية، وبارك في خلفهم الذين هم على نهجهم، ورزقهم كل ما يأملون في صحتهم وزادهم وذرياتهم.

أ.د. عبد الرحيم الرحموني